

المحاضرة الأولى: معنى القرآن لفظ واصطلاحاً

تعريف علوم القرآن:

علوم القرآن مركب إضافي يتكون من كلمتين "علوم" و"القرآن" والمقام يقتضي أن نعرف كل كلمة وحدها لغة واصطلاحاً ثم نعقب على ذلك بتعريفهما معا مركبتين تركيباً إضافياً.

تعريف العلوم:

العلوم جمع علم والعلم نقيض الجهل وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة ويراد به إدراك الشيء بحقيقته أو اليقين أو هو نور يقذفه الله في القلب ، ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة مثل علم النحو، وعلم الطب، وعلم الكيمياء ، ويجمع على "علوم" وقد تسمى به المباحث التي تتناول موضوعاً واحداً مثل: علوم العربية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التجريبية.

تعريف القرآن لغة :

اختلف العلماء -رحمهم الله تعالى- في لفظ القرآن لكنهم اتفقوا على أنه اسم فليس بفعل ولا حرف. وهذا الاسم شأنه شأن الأسماء في العربية إما أن يكون جامداً أو مشتقاً.

فذهب جماعة من العلماء منهم الشافعي إلى أنه اسم جامد غير مهموز وبه قرأ ابن كثير وهو اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل.

وذهبت طائفة إلى أن هذا الاسم مشتق ثم افترقوا إلى فرقتين:

فقال فرقة منهم إن النون أصلية وعلى هذا يكون الاسم مشتقاً من مادة " ق ر ن " ثم اختلفوا:

١- فقالت طائفة منهم الأشعري : إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضمته إليه ومنه قولهم: قرن بين البعيرين إذا جمع بينهما ومنه سمي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران.

٢- وقالت طائفة منهم الفراء : إنه مشتق من القران جمع قرينة لأن آياته يشبه بعضها بعضاً.

وقالت فرقة منهم: إن الهمزة أصلية ثم افترقوا أيضاً إلى فرقتين:

١- فقالت طائفة منهم اللحياني : إن القرآن مصدر مهموز بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر ومنه قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} أي قراءته.

٢- وقالت طائفة منهم الزجاج : إنه وصف على وزن فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه قال ابن الأثير: "وسمي القرآن قرآناً لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض وهو مصدر كالغفران والكفران".

اختص القرآن الكريم بخصائص كثيرة ولعل هذه الخصائص سبب الاختلاف في تعريف القرآن بين العلماء، فكل تعريف يذكر خاصية للقرآن يعرف بها لا يذكرها الآخر ولهذا تعددت التعريفات.

فإذا كان هناك رجل طويل ويلبس ثوبًا أبيض ورداء أحمر وحوله أشخاص أقصر منه قامه ويلبسون ثيابًا ملونة وأردية بيضاء، فإن قلت: فلان هو الطويل فقد عرفته، وإن قلت: إنه الذي يلبس الثوب الأبيض فقد عرفته وإن قلت الذي يلبس الرداء الأحمر فقد عرفته والمقصود في الكل واحد وإن اختلفت التعريفات.

وللعلماء في تعريف القرآن الكريم صيغ متعددة بعضها طويل ولعل أقربها تعريفهم للقرآن بأنه:

"كلام الله تعالى، المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم- المكتوب في المصاحف، المعجز بلفظه ومعناه، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس".

شرح التعريف:

فقولنا: كلام الله: اضافة الكلام الى الله تعالى خرج به كلام الإنس والجن والملائكة.

وقولنا: المنزل على محمد : خرج به المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والانجيل والزيور والصحف الأولى وما بعدها وغير ذلك . ، وخرج به الحديث النبوي ، وخرج به كلام الله تعالى مما استأثر به سبحانه : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) .

والمعجز بلفظه ومعناه: دلالة على عدم القدرة على الإتيان بمثله، والمتعبد بتلاوته خرجت بذلك قراءة الأحاد، والأحاديث النبوية والقدسية.

وقولنا: المتعبد بتلاوته خرجت به الأحاديث القدسية ونريد بالمتعبد بتلاوته أمرين:

الأول: أنه المقروء في الصلاة والذي لا تصح الصلاة إلا به، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".

الثاني: أن الثواب على تلاوته لا يعادله ثواب أي تلاوة لغيره فقد ورد في فضل تلاوة القرآن من النصوص ما يميزها عن غيرها، فقد روى ابن مسعود -رضي الله عنه- أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: "من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف".

وليس هذا الثواب لغير التعبد بتلاوة القرآن الكريم. الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية.

والمنقول إلينا بالتواتر: خرج بذلك جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة.

لعل من المناسب أن نذكر بعض الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية حتى لا يتوهم أحد أن الفرق بينهما مقصور على التعبد بتلاوة القرآن دون الحديث القدسي.

إذ إن هناك فروقًا كثيرة ذكر العلماء منها:

١- أن القرآن الكريم تحدى الله الناس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله أو بحديث مثله فَعَجَزُوا أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي والإعجاز.

٢- أن القرآن الكريم منقول بطريق التواتر فهو قطعي الثبوت كله سورته وآياته وجمله ومفرداته وحروفه وحركاته وسكناته، أما الحديث القدسي فأغلبه أحاديث آحاد ظني الثبوت.

٣- أن القرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من الله باتفاق العلماء، أما لفظه فاختلف فيه.

٤- أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى أما الحديث القدسي فينسب إلى الله تعالى نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى: ويروى مضافاً إلى الرسول الله -صلى الله عليه وسلم- نسبة إخبار فيقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه.

٥- أن القرآن الكريم لا يمسه إلا المطهرون أما الحديث القدسي فيمسه الطاهر وغيره.

٦- أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته من وجهين -كما سبق بيانه.

أ- أن الصلاة لا تصح إلا بتلاوة القرآن دون الحديث القدسي.

ب- أن ثواب تلاوة القرآن ثواب عظيم كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف" والحديث القدسي ليس في تلاوته الثواب الوارد لتلاوة القرآن الكريم.

٧- أن القرآن الكريم تحرم روايته بالمعنى أما الحديث القدسي فلا تحرم روايته بالمعنى.

٨- أن القرآن الكريم لا يكون إلا بوحي جلي وذلك بنزول جبريل عليه السلام على الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقظة فلم ينزل شيء من القرآن على الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالإلهام أو في المنام، أما الحديث القدسي فنزل بالوحي الجلي والخفي.

٩- أن القرآن الكريم يحرم بيعه عند الإمام أحمد وقال: "لا أعلم في بيع المصاحف رخصة" ورخص في شرائها وقال: الشراء أهون. ورخص في بيعها الشافعي وأصحاب الرأي.

١٠- أن القرآن الكريم تسمى الجملة منه آية والجملة من الآيات سورة، والأحاديث القدسية لا يسمى بعضها آية ولا سورة باتفاق.

١١- أن القرآن الكريم يكفر من جحد شيئاً منه، أما الحديث القدسي فلا يكفر من جحد غير المتواتر منه.

١٢- أن القرآن الكريم يشرع الجمع بين الاستعاذة والبسملة عند تلاوته. دون الحديث القدسي.

١٣- القرآن الكريم يكتب برسم خاص هو رسم المصحف دون الحديث القدسي.

أسماء القرآن الكريم وصفاته:

للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة وردت في بعض الآيات والأحاديث النبوية.

١- القرآن: في قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} .

٢- الكتاب: في قوله تعالى: {الْم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} .

- ٣- الذكر: في قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} .
- ٤- الفرقان: في قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} .
- ٥- النور: في قوله تعالى: {فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا}

ومن صفات القرآن الكريم:

- ١- المبارك: في قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} .
- ٢- هدى، ورحمة: في قوله تعالى: {هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ} .
- ٣- الكريم: في قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} .
- ٤- الحكيم: في قوله تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} .
- ٥- الفصل: في قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}

حكمة تعدد أسماء القرآن الكريم:

وقد بين العلماء -رحمهم الله تعالى- حكمة تعدد الأسماء للقرآن الكريم فقال الفيروزآبادي - رحمه الله تعالى: "اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكابتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم- دلت على علو رتبته وسمو درجته وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته".

الاشتراك والامتياز بين أسماء القرآن الكريم:

وبين أسماء القرآن الكريم الكثيرة اشتراك وامتياز، فهي تشترك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه ويمتاز كل واحد منها عن الآخر بدلالاته على معنى خاص، فكل اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته مثلا بالهدى يدل على الهداية فيه، وتسميته بالتذكرة يدل على أن فيه ذكرى، وهكذا .

كما قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- عن لفظ السيف والصارم والمهند.. فإنها تشترك في دلالتها على الذات فهي من هذا الوجه كالمتواطئة، ويمتاز كل منها بدلالاته على معنى خاص فتشبه المتباينة وأسماء الله وأسماء رسوله وكتابه من هذا الباب .

مصدر أسماء القرآن الكريم:

وأسماء القرآن الكريم وصفاته توقيفية لا نسميه ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب أو في السنة النبوية الشريفة.

الفرق بين المصحف والقرآن الكريم:

فإن قلت: رأيت تسميته بالمصحف هل وردت في الكتاب أو السنة؟ قلت: إن المصحف ليس اسماً للقرآن ذاته وإنما هو اسم للمصحف التي كتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه "المصحف" إلا بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في صحف ضم بعضها إلى بعض فسميت مصحفاً.

ولهذا نرى العلماء يتحدثون عن حكم بيع المصحف، ولم يقل أحد منهم ببيع القرآن، فالقرآن كلام الله تعالى، أما المصحف فهو من عمل البشر وصناعتهم التي يبتغون بها الرزق والكسب الحلال .

ولهذا أيضاً لا يصح أن يجمع لفظ القرآن لأن القرآن واحد لا يختلف في كل المصاحف، أما المصاحف فيصح جمعه فيقال "مصاحف" لأن كل واحد منها أو مجموعة تختلف عن الأخرى.

ولهذا -أيضاً- لا يقال قرآن عثمان أو قرآن علي أو قرآن أبي وأما المصحف فيصح أن يقال: مصحف عثمان ومصحف علي ومصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود رضي الله عنهم؛ لأن هذه المصاحف من عملهم دون القرآن.

فائدة في تسميته بالقرآن والكتاب:

وهناك إشارة دقيقة استنبطها بعض العلماء من تسميته بالقرآن والكتاب فقال: روعي في تسميته قرآناً كونه متلوا بالألسن كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

وفيه تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور، والسطور جميعاً. أن تضل إحداها فتذكر الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز .

تعريف علوم القرآن:

لعلوم القرآن معنيان: معنى إضافي ومعنى علم على الفن المدون وإليك بيان ذلك:

المعنى الإضافي:

اعلم أن الإضافة بين "علوم" و"القرآن" تشير إلى أنواع العلوم والمعارف المتصلة بالقرآن الكريم سواء كانت خادمة للقرآن بمسائلها أو أحكامها أو مفرداتها، أو أن القرآن دل على مسائلها أو أرشد إلى أحكامها. فيشمل كل علم خدم القرآن أو استند إليه كعلم التفسير وعلم التجويد وعلم النسخ والمنسوخ وعلم الفقه وعلم التوحيد وعلم الفرائض وعلم اللغة وغير ذلك.

بل توسع بعض العلماء فعد منها علم الهيئة والفلك والجبر والهندسة والطب وغيرها، والحق أنه وإن كان القرآن الكريم يدعو إلى تعلمها إلا أنه لا يجمع عدها من علوم القرآن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحث القرآن

على تعلمه في عمومياته أو خصوصياته وبين العلم يدل القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه .

وبهذا يظهر لك أن علوم القرآن بالمعنى الإضافي تشمل كل العلوم الدينية والعربية.

معناه كفن مدون:

ثم نقل المعنى الإضافي وجعل علمًا على الفن المدون وأصبح مدلوله كفن مدون أخص من مدلوله بالمعنى الإضافي.

ويعرف علوم القرآن كفن مدون بأنه: مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وجمعه وقرآته وتفسيره وناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله ومكيه ومدنيه ونحو ذلك.

ويسمى هذا العلم بـ"أصول التفسير" لأنه يتناول العلوم التي يشترط على المفسر معرفتها والعلم بها.

موضوع علوم القرآن الكريم:

هو القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف.

فضله وشرفه ومكانته:

علوم القرآن الكريم من أفضل العلوم وأشرفها وأسمائها كما قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى: "لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم".

ظهور اصطلاح علوم القرآن:

لم تكن علوم القرآن بخافية على العلماء المبرزين قبل التدوين بل كانت مجموعة في صدورهم، إلا أن اصطلاح "علوم القرآن" لم يظهر في عناوين مؤلفاتهم إلا في فترة متأخرة. حيث ظهر هذا الاصطلاح أول ما ظهر في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري حين ألف محمد بن خلف بن المرزبان "ت ٣٠٩ هـ" كتابه "الحاوي في علوم القرآن".

واعتقد بعض الباحثين أن أول عهد لظهور اصطلاح "علوم القرآن" هو بداية القرن الخامس حين ألف علي بن إبراهيم الحوفي "ت ٤٣٠ هـ" كتابه "البرهان في علوم القرآن" وهذا غير صحيح لأن اسم كتاب الحوفي "البرهان في تفسير القرآن"، ولأنه ظهرت كتب في القرن الذي قبله تناولت علوم القرآن بمعناها المدون وأسبقها ما ذكرت لابن المرزبان وغيره.

ثمرة علوم القرآن الكريم:

١- تيسير تفسير القرآن الكريم فهي مفتاح باب التفسير ولا يصح لأحد أن يفسر القرآن الكريم قبل أن يتعلم علوم القرآن.

٢- معرفة الجهود العظيمة التي بذلها السلف لدراسة القرآن الكريم وعنايتهم الكبرى به وبعلمه التي كان لها الأثر في حفظه من التغيير والتبديل.

٣- التسليح بمجموعة من المعارف القيمة التي تمكن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام، ويبث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه وتعاليمه.

٤- الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم.

المحاضرة الثانية: تعريف الوحي:

الوحي لغة:

أصل الوحي في اللغة إعلام في خفاء ، وقال الحرّالي: هو إلقاء المعنى في النفس في خفاء قال الأزهري: وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحياً والكتابة تسمى وحياً وقال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة وقال الزبيدي: أوحى إليه:

١- الكلام على سبيل الرمز والتعريض.

٢- الصوت المجرد عن التركيب.

٣- الإشارة ببعض الجوارح.

٤- الكتابة.

أنواعه بالمعنى اللغوي:

للوحي أنواع بالمعنى اللغوي وأنواع بالمعنى الشرعي وقد يشتركان في بعضها من حيث الكيفية لكنهما يختلفان من حيث الاعتبار، فالوحي بالمعنى الشرعي خاص بالأنبياء عليهم السلام. وأنواعه بالمعنى اللغوي :

١- إلهام الخواطر أو الإلهام الفطري للإنسان وهو ما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...} الآية.

ومنه الوحي إلى الحواريين، قال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} .

٢- الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} .

٣- الأمر الكوني للجمادات، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا} . وقال تعالى: {وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}.

٤- ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا} وقال سبحانه: {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} فالإيحاء الأول من جبريل عليه السلام إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- والثاني من الله سبحانه وتعالى إلى جبريل عليه السلام. والمعنى: فأوحى جبريل إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- ما أوحى الله إليه.

٥- الإشارة السريعة بجارحة من الجوارح كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه: {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} .

٦- وسوسة الشيطان، قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} ٩ وقال سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} .

الوحي شرعاً:

اختلف العلماء في تعريف الوحي فمنهم من يعرفه بمعنى "الموحي" فيقول هو: كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه وقيل: هو ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع.

ومنهم من يعرفه بمعنى "الإيحاء" فيقول هو إلام الله لأحد أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه.

وقولنا: "إعلام" يشمل أنواع الوحي بمغناه الشرعي كما سيأتي بيانها. وقولنا: "الله" قصر للوحي الشرعي بأنه من الله لا من غيره سبحانه. وقولنا: "لأحد أنبيائه" قصر للوحي بالمعنى الشرعي على الوحي للأنبياء. وقولنا: "بحكم شرعي" بيان للموحي به. وقولنا: "أو نحوه" يراد به القصص والأخبار ونحوها الواردة في القرآن أو السنة مما لم يرد فيها حكم شرعي فهي من الوحي أيضاً.

وظاهر أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن حد المعنى اللغوي والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص. فالوحي بالمعنى اللغوي عام يشمل كل "إعلام في خفاء" والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله تعالى لنبي من الأنبياء، فالوحي بالمعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده فقد خص المصدر بأنه من الله وخص المورد بالأنبياء.

أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي، فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

١- فمن الكتاب:

قوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} ١. وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} ٢. وقال سبحانه: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}.

وقال عز وجل: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ}. وغير ذلك من الآيات.

٢- ومن السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها "أول ما بدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصالحة -وفي رواية- الصادقة في المنام..... الحديث.

وحديث عائشة رضي الله عنها -أيضاً- أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس" ... الحديث، وغير ذلك من الأحاديث.

٣- والدليل العقلي:

أن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة وبراهين عديدة، وثبوت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي وتكرار وقوعه، والله أعلم.

أنواع الوحي بالمعنى الشرعي :

١- ما يكون منامًا.

وهو أول مراتب الوحي كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصالحة -وعند مسلم الصادقة- في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح الحديث".

وليست الرؤيا خاصة بالفترة الأولى من الوحي بل وقعت بعد ذلك كما قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} الآية.

ووقع الوحي بالمنام لإبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن عنه قوله: {يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آبَتُ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} .

ومبادرة إبراهيم عليه السلام للامتثال وقول إسماعيل عليه السلام: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} وقول الله تعالى: {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} دليل قاطع على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي وأمر من الله سبحانه لهم عليهم السلام.

وفي ابتداء النبي -صلى الله عليه وسلم- من الوحي بالرؤيا الصالحة في المنام تهيئة واستعداد لتلقي الوحي في اليقظة، ويدل على هذا حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه- قال: "إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة".

ولم ينزل من القرآن شيء عن طريق الوحي بالمنام، وقد ظن بعضهم أن سورة الكوثر نزلت في المنام مستدلاً بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "بينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: "أنزلت عليّ أنفا سورة" فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} ... الحديث".

والصحيح أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم؛ فقد حكى السيوطي عن الرافعي قوله: "وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ويقال لها برحاء الوحي أ. هـ. قلت -يعني السيوطي: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه . ونقل القسطلاني عن أمالي الرافعي قوله: "الأشبه أن القرآن نزل كله يقظة". وبهذا يظهر أنه لم ينزل قرآن على الرسول -صلى الله عليه وسلم- في المنام، والله أعلم.

٢- ما كان مكالمة بين العبد وربّه:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا} الآية، ومن هذا النوع تكليم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} .

وقوله سبحانه: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} ١ ومنه تكليم الله لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- في المعراج حيث قال: "فأوحى الله إليّ ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة".

٣- ما يكون إلهامًا يقذفه الله في قلب نبيه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعًا ولا يجد فيه شكًا، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

قال: "إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب" .

٤- ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل -عليه السلام- وهذا النوع أشهر الأنواع وأكثرها، وهو المصطلح عليه بـ "الوحي الجلي" ووحى القرآن كله من هذا القبيل ولم ينزل شيء من القرآن على الرسول -صلى الله عليه وسلم- بغير هذا النوع كالإلهام أو المنام أو التكليم بلا واسطة يدل على هذا قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَنُنزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} ، وقوله سبحانه: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} .

والوحي بجميع أنواعه بالمعنى الشرعي يصحبه علم يقيني ضروري من النبي بأن ما ألقى إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا وسوسة الشياطين، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش .

وقد ذُكرت هذه الأقسام الأربعة في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ} ٢ وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في تفسيرها: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا} يوحي إليه في المنام أو بالإلهام: {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} يُسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه السلام: {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا} إما جبريل أو غيره من الملائكة.

كيفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة عليهم السلام:

ورد ذكر إباحة الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة في قوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} ، وقال سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} وغير ذلك.

وقد ورد وصف وحي الله إلى الملائكة في السنة النبوية في أحاديث كثيرة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاء لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ف {إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا} للذي قال: {الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} " ... الحديث.

وعن النواس بن سمعان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة -أو قال رعدة- شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرخوا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سألته ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل"

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا قال: فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فإذا أتاهم جبريل فزع عن قلوبهم، فيقولون يا جبريل: ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق، قال: فينادون: الحق الحق"

وعلى هذا فإن القرآن الكريم كلام الله أسمعه جبريل وبلغه جبريل -عليه السلام- كما سمعه إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وليس لجبريل ولا للرسول إلا البلاغ، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية مثل قوله تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: {وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} .

وقوله سبحانه: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي} وقوله سبحانه: {وَإِذَا تَنَلَّيْ عَنِّيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ} ، وقال سبحانه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} ٣ وقال سبحانه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}

فالوحي من حيث التبليغ قسمان:

١- قسم يبلغه جبريل كما سمعه بحروفه وحركاته من غير زيادة ولا نقصان وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك، وهذا ما أجمع عليه العلماء.

٢- وقسم بلغه جبريل -عليه السلام- أو الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو هما معًا بالمعنى، على خلاف بين العلماء.

كيفية وحي الله -سبحانه- إلى الرسل -عليهم السلام:

وحي الله سبحانه إلى رسله -عليهم السلام- إما أن يكون بواسطة أو بدونها وما يكون بدون واسطة فهو ثلاثة أنواع:

١- ما يكون منامًا.

٢- ما يكون كلامًا.

٣- ما يكون إلهامًا. وسبق بيان هذه الأنواع.

وما يكون بواسطة هو النوع الرابع وهو ما يكون بواسطة جبريل عليه السلام، ويسمى الوحي الجلي.

صور الوحي إلى الأنبياء عامة وإلى نبينا عليه السلام خاصة :

أ- صور الوحي إلى الأنبياء عامة :

تتمثل صور الوحي إلى الأنبياء عامة - عليهم الصلاة والسلام - في صورتين لا واسطة فيهما، هما:

الصورة الأولى: الرؤيا الصالحة في المنام.

فالرؤيا الصالحة للأنبياء وحي يجب اتباعه ، ومن الأنبياء الذين انطبقت عليهم هذه الصورة ، إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

فبالنسبة إلى سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - رؤياه في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل - عليه السلام - وقد وردت هذه الرؤيا في قوله تعالى: (فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ قُلُومًا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)

ولو لم تكن هذه الرؤيا وحيًا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم - عليه السلام - على ذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء .

أما سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - فقد كانت رؤياه الصالحة الصادقة في منامه اعلانا عن بداية الوحي . وسيأتي بيان ذلك عند الحديث عن صور الوحي إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

الصورة الثانية: التكليم الإلهي من وراء حجاب يقظة.

وهذه الصورة ثابتة لبعض الأنبياء وهو موسى ومحمد - عليهما السلام - فقد ثبت أن الله تعالى كلم موسى - عليه السلام - عند الميقات، ولهذا يقال له الكليم، لقوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)

(أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً وإنما وجدها نوراً، وجاءه النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة {أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين} أي نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير، المنزه عن صفات النقص، رب الإنس والجن والخالق أجمعين) .

أما سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقد كلمه الله تعالى يقظة ليلية الاسراء والمعراج وسيأتي بيانه - عند الحديث عن صور الوحي إلى نبينا محمد عليه السلام .

هاتان الصورتان هما القسم الأول والقسم الثاني المشار إليهما في قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ (٥١)

خلاصة ما سبق :

١. أنها كانت بلا واسطة.
 ٢. تكليم إلهي مناماً من خلال الرؤيا الصالحة.
 ٣. تكليم إلهي يقظة من وراء حجاب.
- ب- صور الوحي إلى نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -

من خلال استقصائنا لصور وكيفيات الوحي إلى نبينا محمد - عليه السلام- وجدناها سبع صور ، وهي :

الصورة الأولى : الرؤيا الصادقة في المنام : وهذه الرؤيا الصادقة كانت بداية اعلان نزول الوحي على سيدنا محمد فقد كان عليه السلام أول بعثته لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد وردت عدة روايات صحيحة تؤكد ذلك .

منها رواية الامام البخاري - رحمه الله تعالى - والتي تشير الى كيفية نزول الوحي - في حديثه المشهور بإسناده عن ام المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت :

(أول ما بُدِيَءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حَبِيبٌ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ (٤)، وَكَانَ يَخْلُو بَغَارَ جِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ- وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ- قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا (٥)، حَتَّى جَاءَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَنَّهُ) (٦) الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ جِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلِكُ [فِيهِ ٦٧ / ٨]، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ (٧)، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ.} [الَّذِي

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} الآيات]، فرجعَ بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يرجف فؤاده (وفي رواية: ترجف بوادره)

الصورة الثانية : ما يلقيه الملك في روع النبي - عليه الصلاة والسلام- فقد قال عليه الصلاة
والسلام - : (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا
الله وأكملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على ان تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند
الله لا ينال الا بطاعته) .

والنفث : شعور داخلي عميق كان النبي يحسه إحساسا يخالج روعه من غير أن يتراءى فيه
جبريل للنبي - عليه السلام - عيانا . فالحديث لم يشر إلى هيئة ملكية أو بشرية.

الصورة الثالثة : أن يأتيه الملك مثل صلصلة الجرس : وهذه الصورة كانت أشد حالات
الوحي ، فعن عائشة - رضي الله عنها- أن الحارث بن هشام ...

ومعنى الصلصلة :

الصوت المتدارك المتعاقب الناتج عن صوت خفق أجنحة الملك، وقيل: إنما كان الملك على
هذه الحالة إذا نزلت آية وعيد وتهديد. ولقد أشار القرآن الى هذه الصورة الشديدة الوطأة
والثقيلة في قوله تعالى : (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً)

أو تعريف آخر للصلصلة : صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له
ظنين . ومن صفات هذه الحالة:

١- أنها الأشد على الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما وصفها عليه الصلاة والسلام.

٢- أنها شديدة على الرسول -صلى الله عليه وسلم- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما
قال: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- هل تحس بالوحي؟ فقال: "أسمع صلاصل ثم أسكت
عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض" ٢ وفي مجمع الزوائد: "إلا
ظننت أن نفسي تقبض"

٣- أنه صلى الله عليه وسلم يعرق عرقاً شديداً في هذه الحالة من الوحي كما قالت عائشة
رضي الله عنها: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه
ليتفصد عرقاً" ٤ وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: "كنت أكتب الوحي لرسول -صلى الله عليه
وسلم- وكان إذا نزل عليه أخذته برحاًءه شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ثم سري
عنه"

٤- أن جسمه يثقل ثقلاً شديداً كما روى البيهقي في الدلائل في وصفه للوحي "إن كان ليوحى
إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو على ناقته فتضرب على جرانها من ثقل ما يوحى
إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإن كان جبينه ليطف بالعرق في اليوم الشتاتي إذ أوحى
الله إليه"

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "إن كان ليوحى إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
وهو على راحلته فتضرب بجرانها" ٢ أي تمد عنقها من التعب.

وكان الوحي ينزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو متكئ على رجل زيد بن ثابت -
رضي الله عنه- قال زيد: "حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن، حتى أقول لا أمشي على
رجلي أبداً"

٥- أن الرسول في هذه الحالة من الوحي يغط غطيظ النائم ويغيب غيبية كأنها غشية أو إغماء
وليست كذلك، وقد روى البخاري أن صفوان بن يعلى -رضي الله عنه- قد جاء إلى الرسول -

صلى الله عليه وسلم- وهو يوحى إليه "وعلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثوب قد أظل به فأدخل رأسه فإذا رسول الله محمر الوجه وهو يغط" الحديث.

وأخرج ابن سعد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ويتردد وجهه" أي يتغير لونه .

٦- أن للوحي صوتاً يسمعه الرسول -صلى الله عليه وسلم- مثل الصلصلة ويسمعه الصحابة -رضي الله عنهم- مثل دوي النحل وفي حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: كان إذا نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل"

الحكمة من صوت الصلصلة:

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى: "والحكمة في تقدمه أن يفرغ سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره".

الصورة الرابعة: أن يأتيه الملك - جبريل - في صورته الملكية الحقيقية، ولم يشاهد النبي - عليه السلام - في صورته الملكية إلا في أمرين:

الأولى : عند بداية نزول الوحي وهو في غار حراء ، وقد جاء وصف هذه الحالة في القرآن الكريم في قوله تعالى : (لَمَّهُ شَدِيدُ الْفُؤَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) .

(وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاء جبريل - عليه السلام - أول مرة فأوحى إليه صدر سورة العلق) .

ولقد سبقت الإشارة إلى هذه الحالة ودليلها في الصورة الأولى والثالثة .

الثانية : التكليم الإلهي يقظة ليلة الإسراء والمعراج الليلية المشهودة بالصلاة ، ولقد جاء الدليل عليها في القرآن الكريم في قوله تعالى : (وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) (هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله فيها جبريل على صورته التي خلقه عليها وكانت ليلة الإسراء) .

هذه المرة الثانية هي الصورة الخامسة من صور الوحي الذي كان يأتي النبي - عليه السلام -

الصورة الخامسة: التكليم الإلهي يقظة - سبقت الإشارة إليه فيما تقدم .

الصورة السادسة: أن يأتيه الملك مناما.

ومثال ذلك : سورة الكوثر ، فقد نزلت مناما للحديث الوارد فيها ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءةً، ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا له: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: " نزلت عليّ أنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْإِبْتِرُ﴾ [الكوثر: ٢] ، ثم قال: «هل تدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: " فإنه نهرٌ وعذنيه ربي في الجنة عليه حوضٌ ترد عليه أممي يوم القيامة،....)

والحقيقة أن هذه الصورة موضع خلاف بين العلماء، ومحور الخلاف أنه ليس في القرآن شيء نزل مناما، وإنما جميعه يقظة. فمنهم من يرى أنها نزلت مناما، ومنهم من يرى أنها نزلت يقظة، ولعل هذه الحالة التي كانت تعتريه عليه السلام عند الوحي.

الصورة السابعة: أن يأتيه الملك على هيئة رجل (الصورة البشرية)، وهذه الصورة هي أهون صور الوحي على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فيعي عنه ما يقول ، حتى الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يرونه أحيانا في هذه الحالة ، وكان جبريل - عليه السلام- يأتي لمحمد - عليه الصلاة والسلام - على هذه الكيفية لكي يأنس به - عليه السلام - ويطمئن إليه .

ولقد سبقت الإشارة الى دليل هذه الصورة وذلك عند الحديث ، عن الصورة الثالثة (صورة الصلصلة) وجاء في الدليل (وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول) .

أما ما يتعلق بروية الصحابة له عيانا بعد أن يتمثل لهم على هيئة رجل ، فن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : " ببينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالسا، إذ جاء شديد سواد اللحية، شديد بياض الثياب، فوضع ركبته على ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، ما الإسلام؟ قال: "شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت"، قال: صدقت، فعجبنا من سؤاله إياه، وتصديقه إياه، قال: فأخبرني: ما الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والقدر خيرهِ وشرهِ خلوه ومره"، قال: صدقت، قال: فعجبنا من سؤاله إياه، وتصديقه إياه، قال: فأخبرني: ما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، قال: فأخبرني متى الساعة؟ قال: "ما المسؤول بأعلم من السائل"، قال: فما أمارتها؟ قال: "أن تلد الأمة رببتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان"، قال: فتولّى وذهب، فقال عمر: فأقيني النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثلثه، فقال: "يا عمر، أتدري من الرجل؟" قلت: لا، قال: "ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"

ويمكن اجمال صور الوحي السابقة الذكر في صورتين ، هما :

الأولى: الصورة الملكية الحقيقية التي خلق عليها الملك جبريل - عليه السلام -

الثانية: الصورة البشرية التي تمثل من خلالها جبريل - عليه السلام - على هيئة رجل ، وفي كلتا صورتين كان عليه السلام يعي من جبريل ما يقول:

وهاتان صورتان هما القسم الثالث من أقسام التكلم الإلهي المتمثل بقوله تعالى : أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم)

أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي، فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

١- فمن الكتاب:

قوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} ١. وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} ٢. وقال سبحانه: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} .

وقال عز وجل: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ}. وغير ذلك من الآيات.

٢- ومن السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها "أول ما بدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصالحة -وفي رواية- الصادقة في المنام ... الحديث.

وحديث عائشة رضي الله عنها -أيضاً- أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس" ... الحديث، وغير ذلك من الأحاديث.

٣- والدليل العقلي:

أن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة وبراهين عديدة، وثبوت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي وتكرره وقوعه، والله أعلم.

المحاضرة الثالثة - أسباب النزول

ينقسم القرآن الكريم من حيث نزوله إلى قسمين:

قسم نزل ابتداءً، وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال

فالقسم الأول: نعني به القرآن الذي نزل ابتداءً من الله تعالى حيث لم يكن له سبب في نزوله ولا تعقيباً على أمر من الأمور أو واقعة من الوقائع أو استفسار أو سؤال من التساؤلات، وأوضح مثال ذلك الآيات التي تتحدث عن ترسيخ العقيدة الإسلامية إبان ولادة الإسلام وفكره.

أما القسم الثاني: وهو الذي نزل عقب واقعة أو سؤال، فهو ما يعرف بسبب النزول، أي: إن هذه الآية أو الآيات نزلت بسبب معنى لذلك.

تعريف السبب:

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصراً على أمرين:

١- أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذي روي عن ابن عباس قال: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} .. خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى صعد الصفا، فهتف: "يا صاحباها"، فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً تخرج يسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِي؟" قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تباً لك، إنما جمعنا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}.

٢- أن يُسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر؛ منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكي من ذلك، عن عائشة قالت: "تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهي تقول: يا رسول الله، أكل شياي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وهو أوس بن الصامت".

ولا يعني هذا أن يلتبس الإنسان لكل آية سبباً، فإن القرآن لم يكن نزوله وفقاً على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن ينتزل ابتداءً، بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة، قال "الجعبري": "نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال".

ولذا يُعرّف سبب النزول بما يأتي: "هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".

ومن الإفراط في علم سبب النزول أن نتوسع فيه، ونجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية، والوقائع الغابرة، قال السيوطي: "والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك، وكذلك ذكره في قوله: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} سبب اتخاذه خليلاً، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى".

فوائد أسباب النزول :

- ١ . معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.
 - ٢ . دفع توهم الحصر، فيما ظاهره الحصر.
 - ٣ . معرفة اسم من نزلت فيه، وتعيين الميهم فيها.
 - ٤ . خير سبيل لفهم معاني القرآن وإزالة الاشكال .
- هل لجميع الآيات لها سبب نزول ؟

ليس لجميع الآيات القرآنية سبب نزول ، وذلك لما ذكرناه سابقا من أن القرآن ينقسم في نزوله الى قسمين من حيث نزوله ، قسم نزل ابتداء ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال .

والقسم القرآني الذي نزل ابتداء يشمل الجانب العقدي : وهو الآيات التي جاءت لترسيخ العقيدة الإسلامية وقت ولادة الإسلام ، والجانب الإخباري : ويشمل قصص الأمم الغابرة مع أنبيائها ، أو وصف بعض الوقائع الماضية ، أو الأخبار الغيبية المستقبلية .

والجانب الغيبي : ويشمل الآيات التي تحدثت عن الحقائق التي اشتمل عليها اليوم الآخر من بعث ونشور لمشاهد القيامة وتصوير الجنة وما فيها ، والنار وما فيها .

وغير ذلك من الآيات التي جاءت لهداية الخلق الى صراط مستقيم من غير أن تكون اجابة عن سؤال ، أو بيانا لحكم واقعة .

خطأ بعض العلماء في السبب، وأمثلة ذلك:

لقد اخطأ بعض العلماء عندما جعلوا الأخبار عن الوقائع الماضية من أسباب النزول ، ومن أمثلة ذلك :

- ١ . ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ممثلة برئيسها (أبرهة الأشرم) لهدم الكعبة .
- ٢ . ما ذكره الواحدي أيضا في قوله تعالى : (واتخذوا الله إبراهيم خليلا) سبب اتخاذه خليلا

قال الإمام السيوطي : والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هو من الأخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذلك ذكره في قوله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا ، فليس من أسباب النزول كما لا يخفى)

- شروط العلماء في الأخذ بالسبب :

نعني به المنهج العلمي المتبع في معرفة سبب النزول:

قال الإمام الواحدي : (لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب)

وعلى ضوء هذا القول يفهم أن للعلماء شرطان رئيسان في الأخذ بسبب النزول ، هما :

الأول: الرواية الصحيحة (النقل الصحيح) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة، فإن الأخبار الصريح عن الصحابي عن مثل هذا - أقصد الرواية- يعد من حكم المرفوع.

الثاني : السماع ممن شاهدوا التنزيل أو وقفوا على الأسباب وبحثوا فيها من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن اكتسبوا على أيدي العلماء الموثوقين .

وذهب السيوطي إلى أن قول التابعي يقبل ويكون له حكم المرسل إذا كان صريحا في سبب النزول .

صيغة سبب النزول: لسبب النزول صيغتان رئيستان، هما:

الأولى: صيغة صريحة .

الثانية: صيغة محتملة .

ألفاظ الصيغة الصريحة :

أ- إذا قال الراوي (سبب نزول هذه الآية كذا)

ب- إذا أتى الراوي بفاء التعقيب على مادة النزول (نزل) بعد ذكر الحادثة أو السؤال ، كأن يكون يقول : (حدث كذا ، أو سنل رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا فنزلت الآية) .

مثال الصيغة الأولى : ما روي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (أنزلت "نساؤكم حرث لكم " في اتيان النساء في ادبارهن) .

ألفاظ الصيغة المحتملة :

وهي ألفاظ تحتمل السبب، وتحتمل أمر آخر، وهو ذكر تفسير الآية والأحكام التي دلت عليها، وهذه الصيغ، هي:

أ- إذا قال الراوي : (نزلت هذه الآية في كذا) حيث ذكرت مادة نزل مجردة ومن غير دخول حرف الفاء عليها .

ب- إذا قال الراوي : (أحسب هذه الآية نزلت في كذا)

ج- إذا قال الراوي : (ما احسب هذه الآية نزلت في كذا) ، فلفظ أحسب محتمل ولا يقطع بالسبب .

مثال الصيغة الثانية :

ما روي عن عبد الله بن الزبير "أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع النبي - صلى الله عليه وسلم- إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في شراج من الحرة، وكانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري، سرح الماء يمر، فأبى عليه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك" فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك". واستوعى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للزبير حقه، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ رسول الله الأنصاري استرعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ .

قال ابن تيمية: "قولهم: نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، وقد تنازع العلماء في قول الصحابي: "نزلت هذه الآية في كذا"، هل يجري المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله فيه، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سببًا نزلت عقبه فإنهم

كلهم يدخلون مثل هذا في المسند" ٢، وقال الزركشي في البرهان: "قد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا" فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع"

تعدد الروايات في سبب النزول:

قد تتعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة، وفي مثل هذه الحالة يكون موقف المفسر منها على النحو الآتي:

أ- إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة مثل: "نزلت هذه الآية في كذا" أو "أحسبها نزلت في كذا" فلا منافاة بينها، إذ المراد التفسير، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول، إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية.

ب- إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله: "نزلت في كذا" وصرح آخر بذكر سبب مخالف فالمُعتمد ما هو نص في السببية، وتُحمل الأخرى على دخولها في أحكام الآية، ومثال ذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿تَسَاوُكُم حَرَّتْ لَكُم فَاثُوا حَرَّتُكُم أَنَّى شِئْتُمْ﴾: "عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿تَسَاوُكُم حَرَّتْ لَكُم﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أذارهن" ٢، فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة في السببية، وقد جاء التصريح بذكر سبب يخالفه "عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿تَسَاوُكُم حَرَّتْ لَكُم فَاثُوا حَرَّتُكُم أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فجابر هو المُعتمد لأن كلامه نقل صريح، وهو نص في السبب، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيحمل على أنه استنباط وتفسير.

ج- وإذا تعددت الروايات وكانت جميعها نصاً في السببية وكان إسناد أحدها صحيحاً دون غيره فالمُعتمد الرواية الصحيحة، مثل: ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب البجلي قال: "اشتكى النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فأنته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثة، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ " وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها -وكانت خادماً رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أن جرواً دخل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبي -صلى الله عليه وسلم- أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ جبريل لا يأتيني! فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنته، فأهويت بالمكثسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فقال: يا خولة دثريني فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى﴾ ... إلى قوله: ﴿فَتَرَضَى﴾ قال ابن حجر في شرح البخاري: "قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسنادها من لا يعرف، فالمُعتمد ما في الصحيحين" ٢.

د- فإذا تساوت الروايات في الصحة ووجد وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلاً أو كون إحداها أصح فدمت الرواية الراجحة، ومثال ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: "كنت أمشي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٣.. وقد أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: "قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسال عنه هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ... الآية، فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة حيث كانت قريش. والرواية الأولى تقتضي أنها نزلت بالمدينة، وترجح الرواية الأولى لحضور ابن

مسعود القصة، ثم لما عليه الأمة من تلقى صحيح البخاري بالقبول وترجيحه على ما صح في غيره.

وقد اعتبر "الزركشي" هذا المثال من باب تعدد النزول وتكرره ، فتكون هذه الآية قد نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، واستند في ذلك إلى أن سورة "سبحان" مكية بالاتفاق.

وإني أرى أن كون السورة مكية لا ينفي أن تكون آية منها أو أكثر مدنية، وما أخرجه البخاري عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} مدنية، فالوجه الذي اخترناه من ترجيح رواية ابن مسعود على رواية الترمذي عن ابن عباس أولى من حمل الآية على تعدد النزول وتكرره. ولو صح أن الآية مكية وقد نزلت جواباً عن سؤال فإن تكرار السؤال نفسه بالمدينة لا يقتضي نزول الوحي بالجواب نفسه مرة أخرى، بل يقتضي أن يجيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالجواب الذي نزل عليه من قبل.

هـ- إذا تساوت الروايات في الترجيح جُمعَ بينها إن أمكن، فتكون الآية قد نزلت بعد السببين أو الأسباب لتقارب الزمن بينها، كآيات اللعان: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ} ، فقد أخرج البخاري والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس أنها نزلت في هلال بن أمية، فذف امرأته عند النبي -صلى الله عليه وسلم- بشريك بن سحماء، كما ذكرنا من قبل .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال: "جاء عويمر إلى عاصم بن عدي، فقال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فيقتل به أم كيف يصنع؟ ... " فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أولاً، وصادف مجيء عويمر كذلك، فنزلت في شأنهما معاً بعد حادثتيهما. قال ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب.

و إن لم يمكن الجمع لتباعد الزمن فإنه يُحْمَلُ على تعدد النزول وتكرره، ومثاله: ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال: "لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: " أي عم، قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الل هـ"، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماته حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنه"، فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}

وأخرج الترمذي عن عليّ قال: "سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنزلت".

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال: "خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً ثم بكى، فقال: "إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل عليّ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} . فجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول.

ومن أمثله كذلك ما روي عن أبي هريرة: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به، فقال: "لَأَمْتَلَنَّ بسبعين منهم مكانك"، فنزل جبريل والنبي -صلى الله عليه وسلم- واقف بخواتيم سورة النحل: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} ... إلى آخر السورة^٣، فهذا يدل على نزولها يوم أحد.

وجاء في رواية أخرى أنها نزلت يوم فتح مكة ، والسورة مكية، فجمع بين ذلك، بأنها نزلت بمكة قبل الهجرة مع السورة، ثم بأحد، ثم يوم الفتح، ولا مانع مع ذلك لما فيه من التذكير بنعمة الله على عباده واستحضار شريعته .

والخلاصة.. أن سبب النزول إذا تعدد: فإما أن يكون الجميع غير صريح، وإما أن يكون الجميع صريحًا، وإما أن يكون بعضه غير صريح وبعضه صريحًا، فإن كان الجميع غير صريح في السببية فلا ضرر حيث يُحمل على التفسير والدخول في الآية "أ" وإن كان بعضه غير صريح وبعضه الآخر صريحًا فالمعتمد هو الصريح "ب" وإن كان الجميع صريحًا فلا يخلو، إما أن يكون أحدهما صحيحًا أو الجميع صحيحًا، فإن كان أحدهما صحيحًا دون الآخر فالصحيح هو المعتمد "ج" وإن كان الجميع صحيحًا فالترجيح إن أمكن "د" وإلا فالجمع إن أمكن "هـ" وإلا حُمِلَ على تعدد النزول وتكرره "و" وفي هذا القسم الأخير مقال، وفي النفس منه شيء.

المحاضرة الرابعة: المكي والمدني

تعريف المكي والمدني: لغة واصطلاحاً:

المكي لغة : ما نزل بمكة

المدني لغة: ما نزل بالمدينة.

للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأي منها بُني على اعتبار خاص.

الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عرفة: مدني، كالذي نزل عام الفتح، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا} ، فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} ، وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده.

الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية. والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقباء ولسع.

ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة ، فلا يسمى مكياً ولا مدنياً، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً.

الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة.

وينبغي على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} مكي، وما فيه من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} مدني.

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفْتَحْ بأحد الخطابين، وأن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية، وفيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ٤ . وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} ، وسورة النساء مدنية وأولها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وسورة الحج مكية، وفيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفاتهم وباسمهم وجنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار والازدياد منها.

مميزات المكي والمدني :

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية:

١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

٢- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن. وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة.

٣- كل سورة فيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وليس فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخرها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} .. ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة.

٥- كل سورة فيها آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك.

- كل سورة تفتح بحروف التهجي كـ "الم" و"الر" و"حم" ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين: وهما البقرة وآل عمران، واختلفوا في سورة الرعد.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية.

٢- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وواد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلياً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

٤- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يصح الأذان، ويشد قرعه على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القَسَم، كقصار المفصل إلا نادراً.

ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية:

١- كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية.

٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية.

٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٢- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيتهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

٣- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

الطريقة الموصلة لمعرفة المكي والمدني:

يمكن التوصل إلى معرفة المكي والمدني عن طريقين رئيسيين هما:

الأول: الرواية الصحيحة (النقل الصحيح) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة، فإن الأخبار الصريح عن الصحابي عن مثل هذا يكون له حكم المرفوع.

الثاني: السماع ممن شاهدوا التنزيل أو وقفوا على الأسباب وبحثوا فيها من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن اكتسبوا علومهم على أيدي العلماء الموثوقين .

وقد ذهب السيوطي إلى أن قول التابعي يقبل ويكون له حكم المرسل إذا كان صريحا في سبب النزول .

أ- أقوال الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم -

وذلك باعتبار شاهدوا الوحي ونزوله ، وعرفوا مكانه وزمانه ، بل بلغت الدقة أن أخبرونا بها نزل منه ليلا أو نهارا ، وما نزل منه في سفر أو في حضر في سهل أو في جبل ، صيفا أو شتاء ، وما نزل بببيت المقدس والجحفة والحديبة والطائف وغير ذلك .

روايات تؤكد معرفة الصحابة والتابعين بالمكي والمدني :

١ . ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: "والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه".

٢ . وَقَدْ رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: شَهِدْتُ عَلِيًّا يَخُطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: "سَلُونِي فَوَاللَّهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَحْبَبْتُكُمْ وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ فَوَاللَّهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْلِيلٍ نَزَلَتْ أَمْ بِنَهَارٍ أَمْ فِي سَهْلٍ أَمْ فِي جَبَلٍ".

وقول الصحابي له حكم المرفوع عن النبي، فإذا صح القول عن الصحابي قبل ولا يعدل عنه إلا بدليل أقوى يقتضي هذا العدول.

يقول الباقلاني : " إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين

فوائد المكي والمدني:

لدراسة المكي والمدني فوائد تعين على أمور كثيرة، ومن أهمها:

١ . معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ، فإننا نحكم بأن المدني فيها ناسخ للمكي نظرا الى تأخر المدني عن المكي .

٢ . معرفة التدرج الحكيم في تأريخ التشريع ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد .

٣ . الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالما من التغيير والتحريف.

٤ . تفسير القرآن الكريم: فمعرفة المكي والمدني سبب كبير في الكشف عن أسباب النزول للآيات أو السور، مما يعين على فهم الآية وتفسيرها.

٥ . الدعوة إلى الله تعالى : فكل من المكي والمدني أسلوبه الخاص به ، والذي يمكن الاستفادة منه في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى ، فقد خاطب القرآن المؤمنين وأهل الكتاب بما يلائم نفسياتهم وأنماطهم ومعتقداتهم وكما يقولون "لكل مقام مقال"

٦ . التعرف على السيرة النبوية والوقوف على مجرياتها ، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول والرئيسي لمعرفة ودراسة السيرة النبوية .

ب- أقوال التابعين - رحمهم الله تعالى -

فقد ألحق قول التابعي بقول الصحابي؛ لأن كبار التابعين قد شاهدوا من شاهد نزول الوحي فنقلوا إلينا أقوالهم، فإذا ما أخبرونا بأن هذه الآية مكية قبل قولهم، وقد قبل الإمام الشافعي مراسيل كبار التابعين.

وقد ذكر الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - رواية تؤكد معرفة التابعين بالمكي والمدني وهي : سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : (نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى سلع) .

السور المكية والسور المدنية والمختلف فيها:

ذكر الإمام السيوطي أقوالاً كثيرة في تعيين السور المكية والسور المدنية ، ومن أوقفها ما قاله أبو الحسن بن الحصار في كتابه "الناسخ والمنسوخ" : المدني باتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكي باتفاق :

السور المدنية العشرون، وهي:

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، المنافقون، الجمعة، والطلاق، والتحريم، النصر.

السور المكية: وهي اثنتان وثمانون سورة: وهي عدا السور المدنية والسور المختلف فيها، وبذلك يكون عدد السور القرآنية كلها أربع عشرة ومائة سورة.

السور المختلف فيها الاثنتا عشرة ، هي :

الفاطحة ، الرعد ، الرحمن ، الصف ، التغابن ، التطهيف ، القدر ، لم يكن ، الزلزلة ، الاخلاص ، الفلق ، الناس .

كيف نحكم على السورة بكونها مكية أو مدنية؟

للحكم على السورة بأنها مكية أو مدنية نتبع إحدى الحالتين:

الأول : بالنظر الى مجموع السورة (المجموع)

فإن كانت جميع آياتها مكية كانت السورة مكية، وإن كانت جميع آياتها مدنية كانت السورة مدنية كسور النور مثلاً.

الثانية : بالنظر إلى أغلب آيات السورة (الأغلب)

فإن كانت معظم آياتها مكية كانت السورة مكية كسورة النحل، وإن كانت معظم آياتها مدنية كانت السورة مدنية، كسورة محمد مثلاً.

المحاضرة الخامسة : نزول القرآن جملة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.

ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾

ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث، فالليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان، إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملي في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث نزل القرآن عليه في ثلاث وعشرين سنة.. وللعلماء في هذا مذهباً أساسيان:

١- المذهب الأول: وهو الذي قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء: أن المراد بنزول القرآن في تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيماً لشأنه عند ملائكته، ثم نزل بعد ذلك مُنَجِّمًا على رسولنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه، حيث أقام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات: فعن ابن عباس قال: "بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثم أمر بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين".

وهذا المذهب هو الذي جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس في عدة روايات:

أ- عن ابن عباس قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر. ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ٣.. ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

ب- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "فُصِّلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فُوضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"

ج- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- بعضه في إثر بعض"

د- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل نجومًا"

٢- المذهب الثاني: وهو الذي روي عن الشعبي : أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد ابتداء نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجاً مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله مُنَجِّمًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأن هذا هو الذي جاء به القرآن: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ، وجادل فيه المشركون الذين نقل إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ، ولا يظهر للبشر مزية لشهر رمضان وليلة القدر التي هي الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذا يوافق ما جاء في قوله تعالى بغزوة بدر: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَقَّى الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . وقد كانت غزوة بدر في رمضان. ويؤيد هذا ما عليه المحققون في حديث بدء الوحي، عن عائشة قالت: "أول ما بُدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى

رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء فكان يأتي حِراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة -رضي الله عنها- فتزوده لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو في غار حِراء. فجاءه الملكُ فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني" فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني" فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ، فأخذني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} .. حتى بلغ: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} ". فإن المحققين من الشراح على أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- نبى أولاً بالرؤيا في شهر مولده شهر ربيع الأول، ثم كانت مدتها ستة أشهر، ثم أوحى إليه يقظة في شهر رمضان بـ "اقرأ" وبهذا تتأزر النصوص على معنى واحد.

٣- وهناك مذهب ثالث: يرى أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر في كل ليلة منها ما يُقَدِّرُ الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك مُنَجِّمًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جميع السنة.

وهذا المذهب اجتهد من بعض المفسرين، ولا دليل عليه.

أما المذهب الثاني الذي رُوِيَ عن الشعبي فأدلته -مع صحتها والتسليم بها- لا تتعارض مع المذهب الأول الذي رُوِيَ عن ابن عباس. فيكون نزول القرآن جملة وابتداء نزوله مفرقًا في ليلة القدر من شهر رمضان، وهي الليلة المباركة.

فالراجح أن القرآن الكريم له تنزلان:

الأول: نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

والثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

وقد نقل القرطبي عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث في نزول القرآن والواقع العملي في حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بنزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان: عن ابن عباس: "أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} ، وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ، وهذا أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام"

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك في تعظيم شأن القرآن، وتشريف المنزل عليه، قال السيوطي: "قيل: السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لينزله عليهم. ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنَجِّمًا بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقًا، تشريفًا للمنزل عليه". وقال السخاوي في جمال القراء: "في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنه عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم، ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة أن تُسَبِّحَ سورة الأنعام ، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام، وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له"

٤- ومن العلماء من يرى أن القرآن نزل أولاً جملة إلى اللوح المحفوظ مستدلاً بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لُوحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.. ثم نزل من اللوح المحفوظ جملة كذلك إلى بيت العزة، ثم نزل مفرقاً، فهذه تنزلات ثلاثة.

وهذا لا يتعارض مع ما سبق أن رجحناه، فالقرآن الكريم مثبت في اللوح المحفوظ شأن سائر المغيبات المثبتة فيه، والقرآن الكريم نزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا -كما روي عن ابن عباس- في ليلة القدر، والقرآن الكريم بدأ نزوله مُنْجَمًا -كما يرى الشعبي- على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الليلة المباركة ليلة القدر من شهر رمضان، إذ لا مانع يمنع من نزوله جملة، ومن ابتداء نزوله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مفرقاً في ليلة واحدة، وبهذا ينتفي التعارض بين الأقوال كلها إذا استثنينا المذهب الاجتهادي الثالث الذي لا دليل له.

المدة التي نزل فيها القرآن الكريم:

نزل القرآن الكريم منجماً على محمد في ثلاث وعشرين سنة، وهو القول الراجح والصحيح في ذلك، تبعاً للقول بان مدة إقامته عليه السلام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة. أما إقامته بالمدينة عشر سنين اتفاقاً . بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين) .

فمن ابن عباس قال: (بعث رسول الله لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليهم ، ثم أمر بالهجرة عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين)

نزل القرآن مُنْجَمًا:

يقول تعالى في التنزيل: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ .

ويقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

ويقول: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ .

ويقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

ويقول: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا، فالمراد به نزوله مُنْجَمًا، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتتجيم، فإن علماء اللغة يُفَرِّقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقاً، والإنزال أعم .

وقد نزل القرآن مُنْجَمًا في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأي الراجح، وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرقاً في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ، أي جعلنا نزوله مفرقاً كي تقرأه على الناس على مهل وتثبت، ونزلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى -كالتوراة والإنجيل والزيور- فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ٤، فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو

ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقاً لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن مُنَجَّمًا، فمعنى قولهم: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} : هَلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ دَفْعَةً وَاحِدَةً كَسَائِرِ الْكُتُبِ؟ وماله أنزل على التَّجْهِيمِ؟ ولم أنزل مفرقاً؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قولهم: {وَقَالُوا مَا لَئِذَا رَأَوْا الرَّسُولَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ} ٥، بقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ} ١، وكما رد عليهم في قولهم: {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} ٢، بقوله: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} ٣، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ} ٤، بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن مُنَجَّمًا بقوله: {كَذَلِكَ لِنُنَبِّئَ بِهٖ فُؤَادَكَ} أي كذلك أنزل مفرقاً لحكمة هي: تقوية قلب رسول الله {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} أي قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض، أو ببناءه تبييناً، فإن إنزاله مفرقاً حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبيت.

والذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول عشر آيات في أول المؤمنين جملة، وصح نزول: {غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ} وحدها وهي بعض آية".

حكمة نزول القرآن مُنَجَّمًا:

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم مُنَجَّمًا من النصوص الواردة في ذلك. ونجملها فيما يأتي:

١- الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

لقد وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعوته إلى الناس، فوجد منهم نفورًا وقسوة، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الجفوة، وجبلوا على العناد، يتعرضون له بصنوف الأذى والعتت، مع رغبته الصادقة في إبلاغهم الخير الذي يحمله إليهم، حتى قال الله فيه: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} ١. فكان الوحي يتنزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فترة بعد فترة، بما يثبت قلبه على الحق، ويُسْحِذُ عَزْمَهُ لِلْمُضِيِّ قَدَمًا فِي طَرِيقِ دَعْوَتِهِ، لا يبالي بظلمات الجهالة التي يواجهها من قومه. فإنها سحابة صيف عما قريب تنقشع.

يبين الله له سنته في الأنبياء السابقين الذين كُذِّبُوا وَأُودُوا فَصَبَرُوا حَتَّى جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ، وَأَنْ قَوْمَهُ لَمْ يَكْذِبُوهُ إِلَّا عُلُوًّا وَاسْتِكْبَارًا، فيجد عليه الصلاة والسلام في ذلك السنتة الإلهية في موكب النبوة عبر التاريخ التي يتأسى بها تسلية له إزاء أذى قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ، وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرُنَا} ، {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} .

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}

ويطمئن نفسه بما تكفل الله به من كفايته أمر المكذبين: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا}

وهذا هو ما جاء في حكمة قصص الأنبياء بالقرآن: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}

٢- الحكمة الثانية: التحدي والإعجاز.

فالمشركون تمادوا في غيهم، وبالغوا في غتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحذ يمتحنون بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نبوته، ويسوقون له من ذلك كل عجب من باطلهم، كعلم الساعة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} ، واستعجال العذاب: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} ، فيتنزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم، وبما هو أوضح معنى في مؤدى أسئلتهم، كما قال تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} ٣، أي ولا يأتونك بسؤال عجب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التي هي مثل في البطلان.

وحيث عجبوا من نزول القرآن مُنَجَّمًا بَيْنَ الله لهم الحق في ذلك، فإن تحديهم به مفرقًا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} أي لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وبما هو أبين معنى في إعجازهم، وذلك بنزوله مفرقًا، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات في حديث ابن عباس عن نزول القرآن: "فكان المشركون إذا أحدثوا شيئًا أحدث الله لهم جوابًا"

٣- الحكمة الثالثة: تيسير حفظه وفهمه.

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، سجلها ذاكرة حافظة، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدوّن، ثم تحفظ وتفهم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} ١، {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} ٢، فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله ببسر لو نزل جملة واحدة، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقًا خير عون لها على حفظه في صدورهم وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها، واستمر هذا منهجًا للتعليم في حياة التابعين، عن أبي نضرة قال: "كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات"، وعن خالد بن دينار قال: "قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يأخذ من جبريل خمسًا خمسًا"

وعن عمر قال: "تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- خمسًا خمسًا"

٤- الحكمة الرابعة: مسامرة الحوادث والتدرج في التشريع.

فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمه، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطوبون بها من الفساد والرذيلة، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يُجَلِّي لهم صباحها ويرشدهم إلى الهدى، ويضع لهم أصول التشريع حسب مقتضيات أصلًا بعد آخر فكان هذا طبًا لقلوبهم.

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذي بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام.

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التي تزكو بها النفس ويستقيم عوجها، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقنتل جذور الفساد والشر. ويبين قواعد الحلال والحرام التي يقوم عليها صرح الدين، وترسو دعائمه في المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماغ.

ثم تدرج التشريع بالأمة في علاج ما تاصل في النفوس من أمراض اجتماعية. بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان، خالصة لله، تعبده وحده لا شريك له.

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين في جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله.

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه.

ففي مكة شرعت الصلاة، وشرع الأصل العام للزكاة مقارناً بالربا: {فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} .

ونزلت سورة الأنعام -وهي مكية- تبين أصول الإيمان، وأدلة التوحيد، وتندد بالشرك والمشركين، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم، وتدعو إلى صيانة حرمان الأموال والدماء والأعراض: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ إِلَّا شُرَكَوًا بِهِ شِينًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} .

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام.

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المدينة وآيات تحريم الربا.

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة، أما بيان حقوق كل من الزوجين، وواجبات الحياة الزوجية، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق، أو انتهائها بالموت ثم الإرث، أما بيان هذا فقد جاء في التشريع المدني.

وأصل الزنا حرم بمكة: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} ، ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة.

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}، ولكن تفصيل عقوباتها في الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة.

وأوضح مثال لذلك التدرج في التشريع: تحريم الخمر.

فقد نزل قوله تعالى: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ، في مقام الامتنان بنعمه سبحانه - وإذا كان المراد بالسُّكْر ما يُسْكِر من الخمر، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب - وهذا ما عليه جمهور المفسرين - فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السُّكْر يُشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السُّكْر.

ثم نزل قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا} ١، فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح، ومضارها في إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر في الجسم، وفساد في العقل، وضياع للمال وإثارة لبواغث الفجور والعصيان، ونفرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ ، فافتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر في الأوقات التي يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة، حيث جاء النهي عن قربان الصلاة في حال السكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه في صلاتهم.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ . فكان هذا تحريماً قاطعاً للخمر في الأوقات كلها:

ويوضح هذه الحكمة ما روي عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: "لا تشربوا الخمر" لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: "لا تزنا" لقالوا: "لا ندع الزنا أبداً" ٤. وهكذا كان التدرج في تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث، فقد استشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صحابته في أسرى بدر، فقال عمر: اضرب أعناقهم، وقال أبو بكر: أرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، وأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برأي أبي بكر، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل: لن نُغلب من قلة، فتلقوا درساً قاسياً في ذلك، ونزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَن بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

ولما توفي عبد الله بن أبي -رأس المنافقين- "دُعي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قال عمر: أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ يُعَدُّ أيامه. ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبتسم، ثم قال له: "إني قد خيرت، قد قيل لي: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} ٣، فلو أعلم أي إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها" ثم صلى عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، قال عمر: فعجبت لي ولجراتي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ، وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فما صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل" .

وحين تخلف نفر من المؤمنين الصادقين في غزوة تبوك، وأقاموا بالمدينة، ولم يجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لديهم عذراً هجرهم وقاطعهم حتى ضاقوا ذرعاً بالحياة ثم نزل القرآن لقبول توبتهم: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ . ويشير إلى هذا ما روي عن ابن عباس في نزول القرآن: "ونزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم"

٥- الحكمة الخامسة: الدلالة الفاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد.

إن هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّمًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أكثر من عشرين عامًا تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلوه سورة فيجده محكم النسيج، دقيق السبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يُعهد له مثل في كلام البشر: {كَتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} ١. ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعددة، ووقائع متتالية، وأحداث متعاقبة، لوقع فيه التفكك والانفصام، واستعصى أن يكون بينه التوافق والانسجام: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} .

فأحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم -وهي في ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم- لا تنتظم حباتها في كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض في وحدة وترابط يمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقًا وانسجامًا. فكيف بكلام سائر البشر وأحاديثهم: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} .

المحاضرة السادسة: جمع القرآن وترتيبه وتدوينه

يُطلق جمع القرآن ويُراد به عند العلماء أحد معنيين..

المعنى الأولي: جمعه بمعنى حفظه، وجماع القرآن: حفظه، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى في خطابه لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وقد كان يحرك شفثيه ولسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} ، عن ابن عباس قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفثيه مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} قال: يقول إن علينا أن نجمله في صدرك ثم نقرأه: {فَإِذَا قَرَأْتَهُ} يقول: إذا أنزلناه عليك: {فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} فاستمع له وأنصت {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} أن نبينه بلسانك. وفي لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق -وفي لفظ: استمع- فإذا ذهب قرأه كما وعد الله .

المعنى الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته كله، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة، في صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً وقد رتب إحداها بعد الأخرى.

١- "أ" جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي، صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مولعاً بالوحي، يترقب نزوله عليه بشوق، فيحفظه ويفهمه، مصداقاً لوعده الله: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} ١، فكان بذلك أول الحُفَاط، ولصاحبته فيه الأسوة الحسنة، شغفاً بأصل الدين ومصدر الرسالة، وقد نزل القرآن في بضع وعشرين سنة، فربما نزلت الآية المفردة، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر، وكلما نزلت آية حُفِظت في الصدور، ووعتها القلوب، والأمة العربية كانت بسجيتهما قوية الذاكرة، تستعيض عن أميتها في كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها.

وقد أورد البخاري في صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحُفَاط، هم: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب"، وهؤلاء الأربعة: اثنان من المهاجرين هما: عبد الله بن مسعود وسالم، واثنان من الأنصار هما: معاذ وأبي.

٢- وعن قتادة قال: "سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي".

٣- وروي من طريق ثابت عن أنس كذلك قال: "مات النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد".

وأبو زيد المذكور في هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد على شرط البخاري عن أنس: أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه: قيس بن السكن، قال: وكان رجلاً منا من بني عدي بن النجار أحد عمومتي، ومات ولم يدع عقباً ونحن ورثناه. وبين ابن حجر في ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحُفَاط، وأنه كان يُلقَّب بالقارئ .

وذكر هؤلاء الحفاظ السبعة. أو الثمانية، لا يعني الحصر، فإن النصوص الواردة في كتب السير والسُنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون في حفظ القرآن، ويحفظونه أزواجهم وأولادهم. ويقروون به في صلواتهم بجوف الليل، حتى يُسمع لهم دوي كدوي النحل، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يمر على بيوت الأنصار، ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة في بيوتهم، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له: "لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك؟ لقد أعطيت مزمارة من مزامير داود".

وعن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن، فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "أقرأه في شهر".

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إني لأعرف رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار".

ومع حرص الصحابة على مدارس القرآن واستظهاره فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يشجعهم على ذلك، ويختار لهم من يعلمهم القرآن، عن عبادة بن الصامت قال: "كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يُسمع لمسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا".

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخاري بالروايات الثلاث الآتفة الذكر محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله في صدورهم، وعرضوه على النبي -صلى الله عليه وسلم- واتصلت بنا أسانيدهم.

أما غيرهم من حفظة القرآن -وهم كثر- فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها، لا سيما وأن الصحابة تفرقوا في الأمصار، وحفظ بعضهم عن بعض، ويكفي دليلاً على ذلك أن الذين قُتلوا في بئر معونة من الصحابة كان يُقال لهم القراء، وكانوا سبعين رجلاً كما في الصحيح، قال القرطبي: "قد قُتل يوم اليمامة سبعون من القراء وقتل في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- بئير معونة مثل هذا العدد" وهذا هو ما فهمه العلماء وأولوا به الأحاديث الدالة على حصر الحفاظ في السبعة المذكورين، قال الماوردي ١ معلقاً على رواية أنس: "لم يجمع القرآن غير أربعة": "لا يلزم من قول أنس: لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد وهذا لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على انفراده، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا في غاية البعد في العادة، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى".

والماوردي بهذا ينفي الشُّبه التي توهم قلة عدد الحفاظ بأسلوب مقتع، ويبين الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر في حديث أنس بياناً شافياً.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب "القراءات" القراء من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فعَدَّ من المهاجرين: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعدا، وابن مسعود، وحذيفة، وسالمًا، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة ١، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة. ومن الأنصار: عبادة بن الصامت. ومعادًا الذي يُكنى أبا حليلة، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وصرح بأن بعضهم إنما كمله بعد النبي، صلى الله عليه وسلم.

وذكر الحافظ الذهبي في "طبقات القراء" أن هذا العدد من القراء هم الذين عرضوه على النبي -صلى الله عليه وسلم- واتصلت بنا أسانيدهم، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير.

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- كانوا جمعًا غفيرًا، فإن الاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه الأمة، قال ابن الجزري شيخ القراء في عصره: "إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة".

ب- جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم:

اتخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتابًا للوحي من أجلاء الصحابة. كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها، ويرشداهم إلى موضعها من سورتها، حتى تظاهر الكتابة في السطور، الجمع في الصدور. كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم، دون أن يأمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فيخطونه في العصب، والأخاف، والكرانيف، والرقاع، والأقتاب، وقطع الأديم، والأكتاف، عن زيد بن ثابت قال: "كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نُؤف القرآن من الرقاع".

وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة في كتابة القرآن، حيث لم تيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ.

وكان جبريل يعارض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة"^٣.

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة كذلك.

ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- مجتمعة في مصحف عام، بل عند هذا ما ليس عند ذلك، وقد نقل العلماء أن نفرًا منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود - قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخرًا عن الجميع.

وقبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والقرآن محفوظ في الصدور، ومكتوب في الصحف على نحو ما سبق، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة، ولم يجمع في مصحف عام، حيث كان الوحي ينتزل تبعًا فيحفظه القراء، ويكتبه الكتبة، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر، وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير -صلى الله عليه وسلم- إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا، ولو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي، قال الزركشي: "وإنما لم يكتب في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- مصحف لئلا يفضي إلى تغييره في كل وقت، فلماذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته، صلى الله عليه وسلم" وبهذا يفسر ما روي عن زيد بن ثابت، قال: "قبض النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يكن القرآن جمع في شيء" أي لم يكن جمع مرتب الآيات والسور في مصحف واحد، قال الخطابي: "إنما لم يجمع -صلى الله عليه وسلم- القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو

تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعدده الصادق بضمنان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر".

ويسمى هذا الجمع في عهد النبي، صلى الله عليه وسلم .

مميزات الجمع النبوي :

١. كان مكتوباً على جريد النخل ، والحجارة ، والعظام ، والخشب ، والجلود ، والورق .
 ٢. لم يكن مكتوباً في صحف ولا مصاحف.
 ٣. اشتماله على الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن.
 ٤. مفرق الآيات والسور، أو الآيات.
- أ- حفظاً،

ب- وكتابة: "الجمع الأول".

٢- جمع القرآن في عهد أبي بكر، رضي الله عنه:

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وواجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب، فجهز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة تضم عدداً كبيراً من الصحابة القرّاء، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئاً من الصحابة، فهال ذلك عمر بن الخطاب، ودخل على أبي بكر -رضي الله عنه- وأشار عليه بجمع القرآن وكتابه خشية الضياع، فإن القتل قد استحر يوم اليمامة بالقرّاء - ويخشى إن استحر بهم في المواطن الأخرى أن يضيع القرآن ويُنسى، فنفر أبو بكر من هذه المقالة وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل، وشهوده العرضة الأخيرة، وقصّ عليه قول عمر - فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة، وبدأ زيد بن ثابت في مهمته الشاقة معتمداً على المحفوظ في صدور القرّاء، والمكتوب لدى الكتبة، وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر، حتى إذا توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر، وظلت عنده حتى مات - ثم كانت عند حفصة ابنته صدرًا من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة.

عن زيد بن ثابت قال: "أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرّاء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نعمل شيئاً لم يفعله رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قال: عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر - قال زيد: قال: أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتنبعت القرآن أجمعه من العصب واللّخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجد لها مع غيره {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ} ، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر".

نلخص إلى : الأسباب التي رشحت سيدنا زيد لجمع المصحف :

- ١ . كان من حفظة القرآن ومن كتبة الوحي وشهد العرضة الأخيرة
 - ٢ . كان شابا جلدا قويا قادرا على العمل الشاق .
 - ٣ . كان ورعا ، امنيا ، مستقيما .
 - ٤ . كان معروفا بذكائه وضبطه ودقة تحريه .
- وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبيت، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، وقوله في الحديث: "ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره" لا ينافي هذا، ولا يعني أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، وكان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيدا كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم، ويشهدون بأنها كتبت، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري.

أخرج ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: "قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهادان" وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط، وأخرج ابن أبي داود أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه: أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه" ورجاله ثقافت مع انقطاعه، قال ابن حجر: "وكان المراد بالشاهدين: الحفظ والكتاب" وقال السخاوي في "جمال القراء": "والمراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتبت بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن" قال أبو شامة: "وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتبت بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم- لا من مجرد الحفظ، ولذلك قال في آخر سورة التوبة: "لم أجدها مع غيره" أي لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة".

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب. فأمر أبو بكر بجمعه في مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فكان أبو بكر -رضي الله عنه- أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف، وإن وجدت مصاحف فردية عند بعض الصحابة، كمصحف علي، ومصحف أبي، ومصحف ابن مسعود، فإنها لم تكن على هذا النحو، ولم تنل حظها من التحري والدقة، والجمع والترتيب، والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، والإجماع عليها، بمثل ما نال مصحف أبي بكر، فهذه الخصائص تميز بها جمع أبي بكر للقرآن، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين في عهد أبي بكر بهذا الجمع، وعن علي قال: "أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله".

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثاني.

مميزات الجمع الثاني:

- ١ . قام هذا الجمع على أدق وجوه البحث والتحري ، والتثبيت العلمي (خطة زيد في الجمع)
- ٢ . ظفر باجما عالمة عليه ، وتواتر ما فيه .
- ٣ . شموله للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة الإسلامية .
- ٤ . مرتب الآيات والسور .
- ٥ . اقتصاره على ما لم تنسخ تلاوته .

اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرّق القراء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عن وفد إليهم قراءته، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف، وقد يفتن بعضهم بأنها جميعاً مسندة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناسئة التي لم تدرك الرسول، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها، وذلك يؤدي إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه، ثم إلى اللجاج والتأثيم، وتلك فتنة لا بد لها من علاج.

فلما كانت غزوة "أرمينية" وغزوة "أذربيجان" من أهل العراق، كان فيمن غزاهما "حذيفة بن اليمان" فرأى اختلافاً كثيراً في وجوه القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلف كل لقراءته، ووقوفه عندها، ومماراته مخالفة لغيره، وتكفير بعضهم الآخر، حينئذ فرغ إلى عثمان -رضي الله عنه- وأخبره بما رأى، وكان عثمان قد نوى إليه أن شيئاً من ذلك الخلاف يحدث لمن يقرنون الصبية، فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل، وأجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل عثمان إلى حفصة، فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف، وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

عن أنس: "أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان، أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} ١، فألحقناها في سورتها في المصحف.

ودلت الآثار على أن الاختلاف في وجوه القراءة لم يفرغ منه حذيفة بن اليمان وحده، بل شاركه غيره من الصحابة في ذلك، عن ابن جرير قال: "حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن علية، قال: حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، قال: لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يُعلم قراءة الرجل، والمعلم يُعلم قراءة الرجل. فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين -قال أيوب: فلا أعلمه إلا قال- حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان. فقام خطيباً فقال: "أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً" قال أبو قلابة: فحدثني أنس بن مالك قال: كنت فيمن يملئ عليهم، قال: فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولعله أن يكون غائباً في بعض البوادي، فيكتبون ما قبلها وما بعدها، ويدعون موضعها، حتى يجيء أو يرسل إليه، فلما فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي، فامحوا ما عندكم ١.

وأخرج ابن أشتة من طريق أيوب عن أبي قلابة مثله، وذكر ابن حجر في الفتح أن ابن داود أخرجه في المصاحف من طريق أبي قلابة.

وعن سويد بن غفلة قال: "قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصحف إلا عن ملاء منا. قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ قد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا، قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يُجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنعَم ما رأيت".

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة، كُتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ليجتمع الناس على قراءة واحدة، ورد عثمان الصحف إلى حفصة، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف. واحتبس بالمدينة واحدًا هو مصحفه الذي يسمى الإمام، وتسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات السابقة من قوله: "اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا" وأمر أن يُحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف، وتلقت الأمة ذلك بالطاعة، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى، ولا ضير في ذلك. فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة، ولو أوجب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الأمة القراءة بها جميعًا لوجب نقل كل حرف منها نقلًا متواترًا تقوم به الحجة ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة. وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة. وهذا هو ما كان.

مميزات الجمع العثماني:

١. اشتماله على ما يحتمله رسم الأحرف السبعة.
 ٢. مرتب الآيات والسور.
 ٣. جمعه للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي على جبريل عليه السلام.
 ٤. خلوه من النقط والشكل ومن أسماء السور والفواصل.
 ٥. اشتماله على مئة وأربع عشرة سورة مجردة من الشروح والزيادات.
 ٦. الاقتصار على ما ثبت بالتواتر، دون ما كانت روايته آحادًا.
- الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان من حيث الباعث والكيفية:

يتبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية.

فالباعث لدى أبي بكر -رضي الله عنه- لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته، حين استحر القتل بالقرآن.

والباعث لدى عثمان -رضي الله عنه- كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطأ بعضهم بعضًا.

من حيث الكيفية: جمع أبي بكر للقرآن كان مما تفرق من الوسائل الكتابية التي كتب عليها زمن النبي، وذلك في صحف مجتمعة، أما سيدنا عثمان فجمعه عبارة عن استنساخ عدة نسخ من الصحف التي جمعت زمن أبي بكر الصديق في مصحف واحد مرتب السور والآيات لجمع الناس عليه.

أ- فقيل: كان عددها سبعة. أرسلت إلى: مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، واليمن، والبحرين، والمدينة. قال ابن أبي داود: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: كتب سبعة مصاحف، فأرسل إلى مكة، وإلى الشام، وإلى اليمن، وإلى البحرين، وإلى البصرة، وإلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحدًا.

ب- وقيل: كان عددها أربعة، العراقي، والشامي، والمصري، والمصحف الإمام، أو الكوفي، والبصري، والشامي، والمصحف الإمام. قال أبو عمرو الداني في المقنع ١: "أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية واحدة: الكوفة، والبصرة، والشام، وترك واحدًا عنده".

ج- وقيل: كان عددها خمسة، وذهب السيوطي إلى أن هذا هو المشهور.

أما الصحف التي رُدَّت إلى حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت. ثم غُسلت غسلًا ٢ وقيل أخذها مروان بن الحكم وأحرقها.

والمصاحف التي كتبها عثمان لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم. والذي يُروى عن ابن كثير في كتابه "فضائل القرآن" أنه رأى واحدًا منها بجامع دمشق بالشام، في رِق يظنه من جلود الإبل، ويُروى أن هذا المصحف الشامي نُقِلَ إلى إنجلترا بعد أن ظل في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد فترة، وقيل إنه احترق في مسجد دمشق سنة ١٣١ هجرية.

وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث، وكان سنة ٢٥ هجرية.

المحاضرة السابعة: ترتيب الآيات

القرآن سور وآيات منها القصار والطوال، والآية: هي الجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآن، والسورة: هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع. وترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحكى بعضهم الإجماع على ذلك: منهم: الزركشي في "البرهان"، وأبو جعفر بن الزبير في "مناسباته" إذ يقول: "ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه -صلى الله عليه وسلم- وأمره من غير خلاف بين المسلمين" وجزم السيوطي بذلك فقال: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك" فقد كان جبريل ينتزل بالآيات على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويرشده إلى موضعها من السورة أو الآيات التي نزلت قبل، فيأمر الرسول كتابة الوحي بكتابتها في موضعها ويقول لهم: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا أو كذا، أو ضعوا آية كذا في موضع كذا، كما بلغها أصحابه كذلك، عن عثمان بن أبي العاص قال: "كنت جالساً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ شَخَصَ ببصره ثم صَوَّبَهُ، ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ ... إلى آخرها".

ووقف عثمان في جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها في القرآن، ولو كانت منسوخة الحكم. لا يغيرها. وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقيفية، عن ابن الزبير قال: "قلت لعثمان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ ٤، قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: "يا ابن أخي، لا أعير شيئاً من مكانه".

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفياً. إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث، عن أبي الدرداء مرفوعاً: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال" وفي لفظ: "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ..."، كما جاءت الأحاديث الدالة على آية بعينها في موضعها، عن عمر قال: ما سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: "تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء".

وثبتت قراءة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لسور عديدة بترتيب آياتها في الصلاة، أو في خطبة الجمعة، كسورة البقرة وآل عمران والنساء، وصح أنه قرأ "الأعراف" في المغرب، وأنه كان يقرأ في صبح الجمعة: {الم، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ} "السجدة"، و {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ} "الدهر" وكان يقرأ سورة "ق" في الخطبة، ويقرأ "الجمعة" و"المنافقون" في صلاة الجمعة.

وكان جبريل يعارض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالقرآن كل عام مرة في رمضان، وعارضه في العام الأخير من حياته مرتين، وكان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن.

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو في المصحف المتداول في أيدينا توقيفياً، لا مرأى في ذلك، قال السيوطي بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة: "تدل قراءته -صلى الله عليه وسلم- لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفي وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر".

- ترتيب السور:

اختلف العلماء في ترتيب السور:

أ- فقيل: إنه توقيفي، تولاه النبي -صلى الله عليه وسلم- كما أخبر به جبريل عن أمر ربه، فكان القرآن على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- مرتب السور، كما كان مرتب الآيات على

هذا الترتيب الذي لدينا اليوم، وهو ترتيب مصحف عثمان الذي لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع عليه.

ويؤيد هذا الرأي: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ بعض السور مرتبة في صلاته، روى ابن أبي شيبة: أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفضل في ركعة، وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: "إنهن من العتاق الأول، وهن من تِلادى" فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها.

وروي من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال: "سمعت ربيعة يسأل: لم قُدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة مكية، وإنما أنزلنا بالمدينة؟ فقال: قُدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به، ثم قال: فهذا مما يُنتهى إليه ولا يُسأل عنه".

وقال ابن الحصار: "ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف" ٢.

ب- وقيل: إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم في الترتيب.

فمصحف "علي" كان مرتبًا على النزول، أوله: اقرأ، ثم المدثر، ثم ن والقلم، ثم المزمل وهكذا... إلى آخر المكي والمدني.

وكان أول مصحف ابن مسعود: البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

وأول مصحف أبي: الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

وقد روى ابن عباس قال: "قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المنين، فقرنتم بينهما. ولم تكتبوا بينهما سطر: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ووضعتموها في السبع الطوال، فقال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولًا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ووضعتها في السبع الطوال".

ج- وقيل: إن بعض السور ترتيبه توقيفي وبعضها باجتهاد الصحابة: حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة، فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفضل في حياته عليه الصلاة والسلام.

وروي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران".

وروي: "أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و"المعوذتين".

وقال ابن حجر: "ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيًا" واستدل على ذلك بحديث حذيفة الثقفي حيث جاء فيه: "فقال لنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "طراً عليّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه"، فسألنا أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قلنا: كيف تُحزبون القرآن، قالوا: نُحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفضل من "ق" حتى

نختم ١ ، قال ابن حجر: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ويحتمل أن الذي كان مرتبًا حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه".

وإذا ناقشنا هذه الآراء الثلاثة يتبين لنا:

أن الرأي الثاني الذي يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يُعتمد عليه.

فاجتهاد بعض الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارًا منهم قبل أن يُجمع القرآن جمعًا مرتبًا، فلما جُمع في عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم، ولو كان الترتيب اجتهاديًا لتمسكوا بها.

وحديث سورتي: الأنفال والتوبة الذي رُوِيَ عن ابن عباس يدور إسناده في كل رواياته على "يزيد الفارسي" الذي يذكره البخاري في الضعفاء، وفيه تشكيك في إثبات البسمة في أوائل السور. كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه. ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد: "إنه حديث لا أصل له". وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط ٢.

أما الرأي الثالث الذي يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفي، وبعضها ترتيبه اجتهادي. فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفي. أما القسم الاجتهادي فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادي. إذ إن ثبوت التوقيفي بأدلته لا يعني أن ما سواه اجتهادي. مع أنه قليل جدًا.

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات. قال أبو بكر بن الأنباري: "أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرّقه في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لمستخير، ويوقف جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن قَدَم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن" وقال الكرماني في "البرهان": "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان -صلى الله عليه وسلم- يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه. وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين. وكان آخر الآيات نزولًا: {وَأَتَّفُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} ، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين".

ومال السيوطي إلى ما ذهب إليه البيهقي قال: "كان القرآن على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- مرتبًا سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراعة لحديث عثمان".

سور القرآن وآياته:

سور القرآن أقسام أربعة: ١- الطوال. ٢- والمنين. ٣- والمثاني. ٤- والمفصل.. نوجز أرجح الآراء فيها.

١- فالطوال: سبع: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة، قيل: هي الأنفال وبراعة معًا لعدم الفصل بينهما بالبسمة. وقيل: هي يونس.

٢- المنون: التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

٣- والمثاني: هي التي تليها في عدد الآيات، سميت بذلك لأنها تُثنى في القراءة وتُكرَّر أكثر من الطوال والمنين.

٤- والمفصّل: قيل: من أول سورة "ق"، وقيل: من أول "الحجرات"، وقيل غير ذلك، وأقسامه ثلاثة، طوالة، وأوساطه، وقصاره.

فطوالة: من "ق" أو "الحجرات" إلى "عم" أو "البروج"، وأوساطه: من "عم" أو "البروج" إلى "الضحى" أو إلى "لم يكن"، وقصاره: من "الضحى" أو "لم يكن" إلى آخر القرآن. على خلاف في ذلك.

وتسميته بالمفصّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

وتعداد السور: مائة وأربع عشرة سورة، وقيل: وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة.

أما تعداد الآيات فستة آلاف ومائتا آية، واختلفوا فيما زاد عن ذلك.

وأطول الآيات آية الدّين، وأطول السور سورة البقرة.

وهذه التجزئة تيسر على الناس الحفظ، وتحملهم على الدراسة، وتشعر القارئ لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطاً وافياً وطائفة مستقلة من أصول دينه وأحكام شريعته.

المحاضرة الثامنة : رسم المصحف: تعريفه

وردت في اللغة العربية عدة كلمات للدلالة على تمثيل الألفاظ برموز مرئية من أشهرها "الكتاب، والهجاء، والخط، والرسم، والإملاء" ولم يكن استخدام هذه المصطلحات على حد سواء تاريخياً ويظهر أن أولها هو الغالب في الاستعمال.

أما الرسم وهو ما نتناوله هنا فإن معاجم اللغة العربية لا تذكر لمادته أي معنى يتعلق بالخط فهو في اللغة: بمعنى الأثر، ورسم كل شيء: أثره.

ثم أطلق هذا المصطلح على رسم المصحف أكثر من إطلاقه على رسم غيره. وربما كان استعمال الرسم للدلالة على خط المصحف إشارة إلى معنى الأثر القديم الذي يحرص المسلمون على المحافظة عليه، فظهر مصطلح "مرسوم الخط" و"مرسوم خط المصاحف" و"الرسم".

ويراد بالرسم اصطلاحاً:

تصوير كلمة بحروف هجائها، بتقدير الابتداء بها، والوقوف عليها، لتتحول اللغة المنطوقة إلى آثار مرئية.

أما الرسم العثماني فيراد به: الوضع الذي ارتضاه الصحابة في عهد عثمان -رضي الله عنه- في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه.

القاعدة الأولى: قاعدة الحذف:

والأحرف التي حذفت في بعض المواضع خمسة هي:

الألف، والواو، والياء، واللام، والنون.

أما الألف:

فتحذف لثلاثة أمور :

١- حذف إشارة:

والمراد الإشارة بحذف الألف إلى قراءة أخرى محذوفة الألف. مثل حذفها في "ملك يوم الدين" ٢ وكحذفها في قوله تعالى: "وإن يأتوكم أسرى تفادوهم" ٣ فحذف الألف في {أَسْرَى} إشارة إلى قراءة حمزة حيث قرأها "أسرى" بفتح الهمزة وإسكان السين وبدون ألف بعدها. وأما حذف الألف في "تَفْدُوهم" فإشارة إلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة وخلف حيث قرءوها "تَفْدُوهم" بفتح التاء وسكون الفاء وبدون ألف بعدها.

وأما اللام:

وتحذف اللام إذا وقعت مع لام أخرى في خمس كلمات هي "الليل" و"اللائي" و"التي" و"اللاتي" و"الذي" سواء كان الأخير مفرداً أو مثني أو مجموعاً وما عدا هذه الكلمات الخمس فلا حذف مثل "اللطف" و"اللومة" و"اللؤلؤ" و"اللهم" وغيرها.

لقاعدة الثانية: قاعدة الزيادة:

والمراد بالزيادة حقيقة: إثبات حروف في الكلمة لا يقرأ وصلًا ولا وقفًا، وقد تكون الزيادة في بعض الأحرف ليست حقيقة فتقرأ في الوقف مثل "لكننا" أو الابتداء مثل "ابن" والرسم مبني على الوقف والابتداء وما ثبت في أحدهما لم تكن زيادته حقيقة ١.

والأحرف التي تزداد هي الألف، والواو، والياء.

أما الألف:

فتزداد في حالات منها:

١- تزداد الألف بعد الواو المتصلة بالفعل التي هي ضمير الجماعة إذا لم يتصل بالفعل ضمير. مثل:

القاعدة الثالثة قاعدة البدل . ومثالها في آخر الاسم {هُدَى} ١ {عَمَى} ٢ .

ومثالها في وسط الفعل {اسْتَسْقَاه} ٣ {يَعْشَاهَا} ٤ .

ومثالها في آخر الفعل {أَعْطَى} ٥ {اهْتَدَى} ٦ .

وجاءت الياء في هذه الأمثلة لام فعل، أما مثالها إذا جاءت ياء متكلم فمثل: {يَا أَسْفَى} ٧ {يَا حَسْرَتَى} ٨ {يَا وَيْلَتَى} ٩ ورسمت الألف ياء لأن أصلها يا المتكلم.

والقاعدة التي يعرف بها أصل الألف أن تثني الكلمة إن كانت اسمًا مثل "فتى" فتيان. أو تسند إلى تاء الضمير إن كانت فعلًا مثل "رمى" رميت.

٢- وتكتب الألف ياء في ما جاء رباعيًا سواء كان اسمًا أو فعلًا، وسواء اتصلت الكلمة بضمير أم لم تتصل لقيت ساكنًا أم متحركًا، والأمثلة على ذلك ما يلي:

"الموتى، السلوى، أعطى، فترضى، إحديهما، أخريكم، مجريها".

٣- إذا كانت الألف تشبه المنقولة عن ياء فإنها تكتب ياء ١٠ .

مثل "أتى، يتامى، سكارى، مرضى، متى، بلى، حتى، إلى، أنثى" وما أشبه ذلك إلا ما استثنى وهو كل موضع لو كتبت فيه الألف ياء لاجتمع فيه ياءان ١١ .

ثانيًا: تكتب الألف واو للتفخيم.

إذا كان أصلها واوًا ما لم تكن مضافة.

وجاء ذلك في أربع كلمات مطردة حيث وقعن هن {الصَّلَاة} ١٢ .

أما النون:

فتكتب ألفًا في مواضع منها:

١- يرسم النونين ألفًا في كل اسم منصوبًا ليس فيه هاء التأنيث ولا هو مقصور مثل: {حُكْمًا} و{عِلْمًا} ١٥ و{مَلَجًا} ١٦ و{مُنْتَكًا} ١٧ و{تَقْدِيرًا} ١٨ وما أشبه ذلك.

٢- نون التوكيد الخفيفة تكتب ألفًا إذا كان ما قبلها مفتوحًا مثل: {وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ} ١ و{لِنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ} ٢ .

٣- ومما كتبت نونه ألفًا كلمة "إذن".

مثل {إِذَا لَأَذَقْنَاكَ} ٣ و {قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا} ٤ و {وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا} ٥ وإنما كتبت بالآلف لإجماع القراء على أن الوقف عليها يكون بالآلف.

أما تاء التانيث:

فترسم هاء في الأسماء دون الأفعال. وتقرأ بالتاء في الوصل وبالهاء في الوقف، وهذا هو الأكثر مثل "رحمة" و"نعمة" و"كلمة".

رحمة في {وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} ٦ ونعمة في {وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ} ٧ وكلمة في {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} ٨ وغير ذلك. واستثنى من هذا ثلاث عشرة كلمة هي:

١- {رَحِمْتَ} في البقرة ٩ والأعراف ١٠ والزخرف ١١ وهود ١٢ ومريم ١٣ والروم ١٤.

٢- {نِعِمْتَ} في البقرة ١٥، وآل عمران ١٦، والمائدة ١٧، وإبراهيم ١٨، وفاطر ١٩، ولقمان ٢٠، والنحل ٢١، والطور ٢٢.

القاعدة الرابعة: قاعدة الهمز:

لا تخلو الهمزة من أن تكون في أول الكلمة، أو وسطها، أو في آخرها.

فإذا كانت الهمزة في أول الكلمة:

فقد اتفق شيوخ النقل على أن الهمزة الواقعة في أول الكلمة تكتب على الألف سواء كانت مكسورة أو مفتوحة أو مرفوعة. وسواء كانت همزة وصل أم قطع، ولو تقدمها حرف زائد فلا يعتد به مثل الباء والسين والفاء إلا أن يكون سقوطها يخل ببنية الكلمة، وهذه الأمثلة لذلك:

١. الهمزة الواقعة في أول الكلمة مكسورة {إِيَّاكَ} ١.

٢. الهمزة الواقعة في أول الكلمة مفتوحة {أَنْعَمْتَ} ٢.

٣. الهمزة في أول الكلمة مضمومة {أَوْلِيكَ} ٣.

٤. همزة الوصل في أول الكلمة مكسورة {اتَّخِذُوا} ٤.

٥. همزة الوصل في أول الكلمة مفتوحة {الْحَمْدُ لِلَّهِ} ٥.

٦. همزة الوصل في أول الكلمة مضمومة {ادْعُ} ٦.

همزة تقدمها حرف زائد لا يعتد به في رسمها: {هَا أَنْتُمْ} ٧ {يَا آدَمُ} ٨ {لَأَنْتُمْ} ٩ {بِأَنَّهُمْ} ١٠ {وَأَبْقَى} ١١ {فَإِذَا} ١٢ {سَأَصْرِفُ} ١٣.

همزة تقدمها حرف زائد يعتد به لأن سقوطه يخل ببناء الكلمة مثل {تَوَزَّؤُهُمْ} ١٤ {يُؤْتَى} ١٥ {مُؤْمِنٍ} ١٦.

وإذا كانت الهمزة في وسط الكلمة:

فإنها لا تخلو من أن تكون ساكنة أو متحركة.

فإن كانت ساكنة:

فإنها تكتب بحرف حركة ما قبلها.

فإن كان ما قبلها مضمومًا كتبت على الواو. مثل {يُؤْفَكُ} ١.

وإن كان ما قبلها مفتوحًا كتبت على الألف مثل {يَأْكُلُونَ} ٢.

وإن كان ما قبلها مكسورًا كتبت على الياء مثل {وَيَبْرُؤُا} ٣.

وإن كانت متحركة:

فلها ثلاث حالات:

١- أن تكون متحركة وما قبلها ساكن غير حرف الألف: وحكم ذلك أن لا يصور للهمزة صورة مهما كانت حركتها سواء كانت:

مضمومة مثل {مَسْئُولًا} ٤.

أو مفتوحة مثل {الْمَشَامَةُ} ٥.

أو مكسورة مثل {وَالْأَفْنَدَةُ} ٦.

٢- أن تكون متحركة وما قبلها ألف ساكنة.

فإن كانت حركتها الفتح لم تصور لها صورة مثل {أَبْنَاءَنَا} ٧ و {وَنِسَاءَنَا} ٨ و {مَاء} ٩.

فإن كانت حركتها الضم صورت وأوا مثل {أَبَاؤُكُمْ} ١٠ و {وَأَبْنَاؤُكُمْ} ١١.

فإن كانت حركتها الكسر صورت ياء مثل {نِسَائِكُمْ} ١٢ و {أَبْنَائِكُمْ} ١٣.

القاعدة الخامسة: قاعدة الفصل والوصل.

الأصل في الكتابة فصل الكلمة عن الكلمة لأن كل كلمة تدل على معنى غير معنى الكلمة الأخرى، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبر عنهما ١.

وقد نص علماء العربية على أن حق كل كلمة أن تقع مفصولة في الكتاب عما قبلها وما بعدها ليدل كل لفظ على ما وضع له مفردًا ٢ إلا أنا نجد بعض الكلمات في رسم المصحف ترد مرة موصولة بما بعدها، وترد مفصولة في موضع آخر.

وفي هذه القاعدة يورد علماء الرسم ما يوصل وما يفصل من هذه الكلمات.

ويريدون بالموصول: كل كلمة اتصلت بما بعدهم في الرسم.

وبالمفصول: كل كلمة انفصلت عما بعدها في الرسم.

وإذا كانت الكلمة مفصولة عن غيرها جاز الوقف عليها في مقام التعليم أو الاختبار أو في حالة الاضطرار.

وإذا كانت الكلمة موصولة بما بعدها لم يجز الوقف عليها بل على الكلمة الثانية منهما وتنزل الكلمة الأولى مع الثانية منزلة الكلمة الواحدة.

ولعلك تقول: إذا كان الفصل هو الأصل فكان الحق ألا يذكر علماء الرسم إلا ما خالف الأصل دون ما وافقه، فما بالهم يتناولون هنا الموصول، والمفصول جميعًا.

القاعدة السادسة: ما فيه قراءتان:

ويدخل تحت هذه القاعدة نوعان من الكلمات:

النوع الأول: كلمات فيها أكثر من قراءة وتدخل تحت إحدى القواعد السابقة:

ففي قاعدة الحذف ترسم "ملك يوم الدين" بحذف الألف لأن في ملك قراءتين بالألف "مالك"
وهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره وقرأ الباقون بحذفها.

المحاضرة التاسعة : معنى الترجمة

والترجمة تطلق على معنيين:

أولهما: الترجمة الحرفية: وهي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللغة الأخرى بحيث يكون النظم موافقاً للنظم، والترتيب موافقاً للترتيب.

ثانيهما: الترجمة التفسيرية أو المعنوية: وهي بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه.

والذين على بصر باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل والإحاطة بجميع معناه. فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة. فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل في الاستفهام وغيره، والمضاف مقدم على المضاف إليه، والموصوف مقدم على الصفة، إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلاً: كـ "لجين الماء"، أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولها: كـ "عظيم الأمل" وليس الشأن كذلك في سائر اللغات.

والتعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى، فإن الألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلاً عن التراكيب.

والقرآن الكريم في قمة العربية فصاحة وبلاغة، وله من خواص التراكيب وأسرار الأساليب ولطائف المعاني، وسائر آيات إعجازه ما لا يستقل بأدائه لسان.

حكم الترجمة الحرفية:

ولهذا لا يجد المرء أدنى شبهة في حرمة ترجمة القرآن ترجمة حرفية. فالقرآن كلام الله المنزل على رسوله المَعْجَز بألفاظه ومعانيه المتعبد بتلاوته، ولا يقول أحد من الناس إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها إنها كلام الله، فإن الله لم يتكلم إلا بما تتلوه بالعربية، ولن يتأتى الإعجاز بالترجمة؛ لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية - والذي يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربي المبين بألفاظه وحروفه وترتيب كلماته.

فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها وتراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآناً.

الترجمة المعنوية:

القرآن الكريم -وكذا كل كلام عربي بليغ- له معان أصلية، ومعان ثانوية.

والمراد بالمعاني الأصلية المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية.

والمراد بالمعاني الثانوية خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام، وبها كان القرآن معجزاً.

فالمعنى الأصلي لبعض الآيات قد يوافق فيه منثور كلام العرب أو منظومه، ولا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن، فإن إعجازه ببديع نظمته وروعة بيانه، أي بالمعنى الثانوي. وإياه عني الزمخشري في كشفه بقوله: "إن في كلام العرب -خصوصاً القرآن- من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان".

حكم الترجمة المعنوية:

وترجمة معاني القرآن الثانوية أمر غير ميسور، إذ إنه لا توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب، وذلك ما لا يسهل على أحد ادعاؤه. وهو ما يقصده الزمخشري من عبارته السابقة. فوجوه البلاغة القرآنية في اللفظ أو التركيب. تنكيرًا وتعريفًا، أو تقديمًا وتأخيرًا، أو ذِكْرًا وحذفًا، إلى غير ذلك مما تسامت به لغة القرآن، وكان له وقعه في النفوس - هذه الوجوه في بلاغة القرآن لا يفي بحقها في أداء معناها لغة أخرى، لأي لغة لا تحمل تلك الخواص.

أما المعاني الأصلية فهي التي يمكن نقلها إلى لغة أخرى. وقد ذكر الشاطبي في الموافقات المعاني الأصلية والمعاني الثانوية ثم قال: "إن ترجمة القرآن على الوجه الأول -يعني النظر إلى معانيه الأصلية- ممكن، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معانيه للعامة ومن ليس لهم فهم يقوى على تحصيل معانيه. وكان ذلك جائزًا باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الإنفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي".

ومع هذا فإن ترجمة المعاني الأصلية لا تخلو من فساد، فإن اللفظ الواحد في القرآن قد يكون له معنيان أو معان تحتلها الآية فيضع المترجم لفظًا يدل على معنى واحد حيث لا يجد لفظًا يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة.

وقد يستعمل القرآن اللفظ في معنى مجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي. ولهذا ونحوه وقعت أخطاء كثيرة فيما تُرجم لمعاني القرآن.

وما ذهب إليه الشاطبي واعتبره حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي ليس على إطلاقه. فإن بعض العلماء يخص هذا بمقدار الضرورة في إبلاغ الدعوة. بالتوحيد وأركان العبادات، ولا يتعرض لما سوى ذلك، ويؤمر من أراد الزيادة بتعلم اللسان العربي.

الترجمة التفسيرية:

ويحق لنا أن نقول: إن علماء الإسلام إذا قاموا بتفسير للقرآن، يتوخى فيه أداء المعنى القريب الميسور الراجح، ثم يترجم هذا التفسير بأمانة وبراعة، فإن هذا يقال فيه: "ترجمة تفسير القرآن" أو "ترجمة تفسيرية" بمعنى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى. ولا بأس بذلك. فإن الله تعالى بعث محمدًا -صلى الله عليه وسلم- برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها وألوانها: "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة" ١، وشرط لزوم الرسالة البلاغ - والقرآن الذي نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمة العربية ملزمًا لها، ولكن سائر الأمم التي لا تُحسن العربية، أو لا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها. وقد عرفنا قبل استحالة الترجمة الحرفية وحرمتها. واستحالة ترجمة المعاني الثانوية، ومشقة ترجمة المعاني الأصلية وما فيها من أخطار، فلم يبق إلا أن يترجم تفسير القرآن الذي يتضمن أسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب وصريح السنّة إلى لسان كل قبيل حتى تبلغهم الدعوة وتلزمهم الحجة. وترجمة تفسير القرآن على نحو ما ذكرنا يصح أن نسميها بالترجمة التفسيرية. وهي تختلف عن الترجمة المعنوية وإن كان الباحثون لا يفرقون بينهما، فإن الترجمة المعنوية توهم أن المترجم أخذ معاني القرآن من أطرافها ونقلها إلى اللغة الأجنبية، كما يقال في ترجمة غيره: ترجمة طبق الأصل. فالمفسر يتكلم بلهجة المبين لمعنى الكلام على حسب فهمه، فكأنه يقول للناس: هذا ما أفهمه من الآية، والمترجم يتكلم بلهجة من أحاط بمعنى الكلام وصبّه في ألفاظ لغة أخرى. وشتان بين الأمرين. فالمفسر يقول في تفسير الآية: يعني كذا، ويذكر فهمه الخاص. والمترجم يقول: معنى هذا الكلام هو عين معنى الآية، وقد عرفنا ما في ذلك.

وينبغي أن يؤكد في الترجمة التفسيرية أنها ترجمة لفهم شخصي خاص، لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعاني القرآن، وإنما تتضمن ما أدركه المفسر.